دوائر بلا أسنان

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

1443 هـ/ 2022 م

رقم الإيداع: 14659/ 2022

الترقيم الدولي: 978-977-838-830-5

الكتاب: دوائر بلا أسنان

المؤلف: أيمن جبر

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

النخبة 23 شارع عبدالخالق ثروت. القاهرة. الدور الثالث

تليفون: 20223926449+

201096124252+

البريد الإلكتروني: info@elnokhbapublish.com

زورونا على موقعنا: elnokhbapublish.com

الفيسبوك: النخبة للطباعة والنشر والأبحاث

يمنع نسخ أواستعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أوإلكترونية أوميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أوأقراص مقروءة أوأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع فى مصر

دوائر بلا أسنان

أيمن جبر

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2022

المحتويات

المقدمة 9

وينجو الإوز 11

المصريون في البرزخ 21

هكذا تُقْطَع الحياة 29

مسارات صناعية 38

التلاميذ والزلعة 47

عندما تزول أسباب الحياء 51

التفاحة بين شاب وشيخ 53

الشاب الوسيم 57

الأم 61

البرزخ 64

وعجبي على الناقد المحتار 66

الحَوَل العاطفي 69

عندما قال ماركس «لست ماركسيًا» 71
الفَشْخرة 74
متى يثمر الإيمان؟ 76
العزف تحت التهديد 78
زيارة للجنة والنار 81
تاريخ بالسكر 83
تعدد الزوجات 86
المَذَلَّة في ميزان الدين 88
القرآن الكريم 91
كنز أمين معلوف 94
انفلونزا الصَنَميّة 98
تَيَبّس 100
طُوِيَت ولا ندري 102
نَزْع الفتيل 105
الخيال المَقْهور 107

الرصيد الحضاري 112
نبوءة الأدباء 115
لا أعرف 120
الحكمة من أفواه الفنانين 123
كنز الاختلاف 127
الإنسان 131
ملائكة أم يعشقون البيض؟ 135
شَبَع سقراط 137
خروتشوف في مصر 141
تنفس أنت أولا 143
سراج الدين ونظرة نابليونية 147
لا أريد دُعاءكم 150
قصاصات 153

المقدمة

قــال لي صديقي: ها أنت تكتــب يوميًّا منذ ســنوات، تَقْذفنا بالأفــكار المُفردة والمتناثرة والطائشــة، ألفاظُك العارية بدون قفازات، تنطلق في جميع الاتجاهات، فتطيح بنا يمينًا ويســارًا، مــا إن نَشْرَع في محاولة فك رموز فكرة، حتى تَشــدَّنا إلى فكرة أخرى، تاه الجميع وعجزوا عن مُلاحَقتك وفَهمك، بل عجزوا عن مَعرفــة هَوِيَّتك، أنت مــع أم ضِد!، أنت هنــا أم هناك!، لو حدثت المعجزة وفَهِمنا كل ما كتبت، ماذا يجب علينا فعله؟

هذه الأفكار مثل الأحجار المُتفرقة، ما عليك إلا أن تبني بها بناءً له ملامح واضحة، فنحن لا نفهــم إلا الكلمات المباشرة، ماذا تريد منا؟، ما خلاصة ما كُتِب خلال كل تلك السنين؟

مــاذا نفعل؟ ولــو فعلنــا؛ إلى أيــن ســنصل؟ وإن وصلنا ! كيف نعرف أننا وصلنا لطريق الســلامة؛ وليس الندامة! ولماذا تُقحم دائمًا مصطلح (دوائر بلا أسنان) في أغلب مقالاتك؟

متى تتحدث العربية يا رجل؟

صمــت صديقي قليــلًا ثــم انفلتت مــن فَمِــه ضَحكة رغــما عنه ثم قال: سوف أقول لك كيف أراك» !ولكن أعْطني الأمان يا مولاي»

لم أبْتســـم ولم أعْبس، بل تســـمَّرت مكاني وأنا أقبض جَسدي وأعصابي اســـتعدادًا لتلقي قنبلة من الســـخرية، وربما تتطور إلى الإهانة، فصديقي لا كُلْفَة بيني وبينه.

أومأت إليه أنْ تكلم.

قال أراك مثـــل «علي بيه مَظهـــر» في نهاية الفيلم الســـينمائي، وقد وقف في وسط «ميدان التحرير» بالقاهرة، يَقْبض في يديه على (كُوز) مَقلوب أمام وجهه «كميكروفون»، تُلقي البيانات مُتَخَيِّلا الجُمهور وقد احتشد حولك بالملايين.

يَســـتنْجدون بالصمـــت خَشـــية أن تَفوتهم خُلاصَـــة الحِكمة التي تَخـــرج من فمك، والواقع أنَّ الجمهور؛ بين ســـاخِرٍ منك أو مُتجاهل لك، فهَلاَّ رفَقْتَ بنفسك وسَتَرْتها وأكْرمتها؟

لم أزد عـــلى أن تَضَاحكت لكلامه ولم أرد، أحسســـت بِقَرْصة لا أدري من أين أتـــت ولا أين وقعت، ولكنها أشْـــعلت كل جسدي، ولأنني عاهدت نفسي ألا أكتم خواطري مهما كانت، كتبت الحوار مع صديقي ثم أمسكت بالكوز وسَطرْت كتابي.

❊ ❊ ❊

وينجو الإوز

عندمـــا يُهاجـــر سِرب الإوز إلى المناطق الأكثـــر دفئا؛ يطير في تشكيل على شكل رقم ثمانية «أفقية» مثل مُقدمة الصاروخ.

دَرَسَ العلماء هذا الأســـلوب في الطـــيران الجَماعي الذي أمْلته الغريزة على الطيور، واكتشـــفوا أنَّ فعالية الطيران تَزيد بنســـبة 71 ٪ مقارنة بطيران كل طائر وحده.

تتصدى الطيور التي في المقدمة وعلى الأطراف لأكبر كمية من دفع الهواء، ويوفِّر هذا للطيور خلفهم جهدا كبيرا، لو غادرت إوزة سِرْبَها؛ سيُجبرها ضغط الهواء أنْ ترْتدَّ للسِرب، وإنْ تعبت الإوزة القائدة التي في الأمام؛ تتراجع لنهاية السرب وتحل محلها أخرى في القيادة، فالقيادة عندهم مَغْرَم لا مَغْنم.

لهذا يحـــدث التبادل تلقائيا، فمن اســـتنفذ طاقته يتراجع ويأتي غيره ليقود.

لـــو تخيلنا الطيور التي تهتـــدي بالغريزة الربانية؛ تُقَلِّد إنســـانَ اليوم الذي يَميل للســـير في رحلة الحياة وحـــده أو مع أسرته فقـــط، فتطير فرادى، أو تطـــير كل أسرة من الطيور وحدها في مجموعات -فلا يَتعدى عدد أفراد الأسرة أصابع اليد الواحدة-

كم حجم الإنجاز؟ وكم حجم الفَقْد في عدد الطير الذي يَهلك أثناء الطيران؟

أليس في هذه الغرائز العَبْقرية والمُلهمة ما يُنير الطريق ويرشدنا في رحلة الحياة فَنُسَبِّح بحمد خالقها ونهتدي بالرسائل التي أودعها الله تعالى في مخلوقاته التي سَخَّرها لخليفته في الأرض؟

لماذا نجد الغريزة التي أودعها الله تعالى في المخلوقات الغير عاقلة دائما أقرب للكمال؟

منح الله الإنسانَ نعمة العقل والحرية، يفكر بعقله ويختار بحريته، لكل إنسان نَصيبه من الموهبتين، ويتضاعف قدر استفادة الإنسان من الموهبتين حين يَتشارَكوا فيهما، فتتعاون العقول، وتتشارك الحريات، فيَنْتج الخليفة الذي أراده الله لعِمارة الارض ويَسود فيها الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وإنْ لم يتعاون الناس ويتشاركوا فسوف يُصبحوا تُروسا ملساء ودوائرَ بلا أسنان وإوز يطير فرادى، فالغريزة في الحيوانات هي برنامج يوضع فيها ويساعدها على خَوْض غِمار الحياة فيتحقق الغَرض الذي خُلِقت له وتنجوا من الفناء!

ألا تكون فضيحة «بِجلاجل» أنْ يَفْنى الجِنس البشري الذي فَضَّلَه الله بالعقل والروح والحرية .... وينجوا الإوز!

الســـاعة في بداية ابتكارهـــا عندما كانت تعتمـــد في جوهرها على حركة التروس، هـــي عمل بديع ومُفيـــد، بِفَضْل التناغم والعبقرية في تجميع حركة الـــتروس المختلفة في أقطارها ودِقة وقوة أســـنانها وسرعة دورانها، تتعاون ولا تتصادم، ولا يَنعزل كلُ ترس بحركته وطاقته.

لو كانت الساعة بنفس التركيب العَبْقري؛ ثم نُزِع من التروس أســـنانها، وانعزلت وأصبحت مجرد دوائر ملســـاء تدور حول محورها الخاص؛ ما هي النتيجة؟

بعض الدوائر حســـب حظها ســـوف تدور حـــول محور ثري ونَشِـــط، وأخرى سوف تدور حسب حظها بطيئة وفقيرة وهي أقرب للسكون، وتتفاوت الحياة داخل الساعة، فتصبح حركة ونشاط بلا ثمرة، ومظهر حياة بلا حياة حقيقية، ولا يمكن أنْ تُسمَّى ساعة ولا يَحْصل منها وظيفة.

لو أسْـــقطنا اليوم هذا الوصْف على مجتمعنـــا، لوجدناه مطابقا لحال تلك الساعة ذات التروس الملساء، يعيش الناس في دوائر بلا أســـنان، قد تكون دائرة تحتوي فردًا واحدًا يمســـك بهاتف ويعيش حياته داخل تلك الشاشـــة، قد تكون دائرة تحتوي على أسرة تعيش حياتها داخـــل كوكبها المعزول، تصب كل جهدها

في نفســها، شــعار حالها «ما يحتاجه البيت يحرم على الجامع»، وكلٌ مشغولٌ بنفسه.

أسر تحمل هَمَّ نفسِــها وتحاول أنْ تَزيد مــن نصيبها في دائرتها، لا يَهمها الدوائر حولها، مُكتفية بنفســها، وتَظن أنها في وضعها المثالي الذي لا أفضل منه، وتَتجاهل أو تَتعامَى عما يَنْقصها من الحياة الحقيقية المنتِجة التي يَعُمّ خيرُها على الجميع والتي تَدْفع أمراض الحياة عن الجميع.

هذا هو مــرض المجتمع المصري والعربي ، ولــو تم مواجهته وعلاجه لزال التخلف الذي أنتج الفارق الرهيب بين المجتمع الغربي والمجتمع المصري والعربي، وجعلهما وكأنهما قَصر الباشا وعزبة الصفيح، قصر الباشا الذي ينعم سكانه بثروة تروسهم الرشــيقة والصلبة، وعزبة الصفيح المُستهلِكة والتي تعاني منْ شــقاء فَقر طاقتها ودوائرها المَلساء، الجزر المنعزلة في دوائر بلا أسنان لا بد أن تَقترب وتُنَمِّي أسنانها لتلتحم الدوائر معا.

تدور معا

ترتقي معا

تفكر معا

تقرر معا

تنجو معا

تعيش الحياة معا بحلوها ومرها

فــلا يتألم أحد وحده بــما يفوق طاقتــه، ولا يتنَعَّم أحد وحده بما يزيد عن طاقته.

في مقال للدكتور(محمد حامد الأحمري) يقول:

(إنَّ سياســة العرب «عَزف منفرد» لشــخص واحد، كما هي موســيقاهم أيضا، موســيقى منفــردة ولا تنجــح، ولا تَبْقى إلا ضعيفة منفردة، فلم يَنجح عند العرب إلاَّ الرَبابة المُنفردة في البادية، والناي المُنفرد في المدن، فهي آلات بســيطة تَنسجم مع عقل عازفها وأدواته الثقافية)

(ولهذا لم تَنْضج عند العرب، الموســيقى الهارمونية «أي المؤتلفة في توافق ووئام والمُنَسِّقة بين عدد كبير من الآلات والعازفين»، لأن الوئــام يَنِم عن قــدرة ثقافية جماعية خُلُقيــة وعَقْلية تُجْبر على التنــازل ومُطاوعة بعضهــم لبعض للوصــول إلى مُنتج جميل شــامل يُنتجه أكبر عدد، ويَســعد به أكبر عدد، ويعتز به ويقتدي القادمون).

لماذا اختار الشعب المصري والعربي العَزْفَ المنفرد عبر تاريخه؟

شـــخص يعزف على الربابة في المقاهي ويروي قصص شـــعبية مثل أدهم الشرقـــاوي وأبي زيد الهِلالي والزناتي خليفة، مُطرب ومطربـــة ووراءهما تَخْت، فيطرب الســـامعون وتتعلق قلوبهم وأبصارهم وجَوارحهم بهم.

الشخصيات التاريخية العربية عبر قرون والتي تُجسِّد البطولة أو الطُغْيان فردية، حتى الشَـــعيرة الدينية المُتمثلة في خطبة الجمعة أو مَوعِظة القِدِّيس، هـــي نموذج آداء فرد يتحدث أمام جمهور يَســـتمع ويُنصت، ولا قُدرة على الرد أو المقاطعة وإلا فَسَدت الشـــعيرة، كما في الحديـــث: إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبكَ يَـــوْمَ الجُمُعَةِ: أَنْصِتْ، وَالإِمَامُ يَخْطُبُ، فَقَـــدْ لَغَوْتَ- البخاري -934 رغم أنّ الصحابـــة كانوا لا ينْصتـــون في كل الأحوال؛ بل يقاطعون الخطبة حين يَسمَعون ما لا يتماشى مع ما تَعلموه من الرسول، ولكن قامت أحاديث بمهمة إســـكات الجميع وتعويدهم على الســـكوت طَمَعا في الأجْر الكامل، وبهذا أصبح للخطبة مسار في اتجاه واحد، من الخطيب للمصلين.

وتنفـــرد بلادنا دون بلاد العالم بالرقص الشرقي الذي يُســـمَّى (هـــز الوســـط أو رقْصَة البطـــن)، وهو أيضا عـــزف منفرد،

لا نَفْخــر به ولكنَّه ملتصــق بتراثنا وتاريخنــا، وتمتلئ الأفلام المصرية القديمة بمشــاهد منه، وجاء زمــن كان لا يقام حفل لصاحــب السرايا في القرية دون اســتئجار راقصــة تُرَفِّه عن الفلاحين، وبهذا لم تُبْدع بلادنا في الاحتفالات والأفراح طريقة تجمــع بين الرقص الجماعي والحِشْــمة بحيث يمرح الجميع في تناغم وبراءة.

نحــن لم نتعود إلا العزْف المنفرد، وحــين ننادي بعزف جماعي نفشل لأننا كاذبون من الداخل، وهَوانا كُله مع العزْف المُنفرد، والأحلام التــي يَكْتنزها كل فرد هي أحلام العَــزْف المُنفرد، فالعربي لا يَخضــع للعربي إلا في حالة واحدة وهي حين يُظِلهما الدين، وهذا كلام «بن خلدون»، مستشــهدا بســيرة الإسلام حين تآخى الأوس والخــزرج والمهاجرون وذابت الطائفية مع حرارة الرسالة.

فأكثرنا نبلا لا يفكــر إلا في العزف المنفرد ولا يحلم إلا بعازف منفرد يُحَقِّق حلمه.

نحــن نحلم بعودة فرد مــن التاريخ مثل؛ عمــر بن الخطاب، صلاح الدين الأيوبي، سيف الدين قطز، محمد الفاتح.

لا بد أن تتغير الثقافة، ويجب أن نَفهم أنَّ هناك علاقة بين نَهضة أوربا وتَطور السيمفونيات والفِرَق الموسيقية التي كانت تَحشد عشرات الموسيقيين ليَعزفوا معا لحنا واحدا.

نحن مَسْــجونون في فِكرة الأداء الفــردي ولهذا فأول واجب هو أن نَرْكلها بأقدامنا بعيدا ونســتبدلها بثقافة وروح التعاون والفريق.

تعظم عندنا البطولة الفرديــة، فالبطولة والمجد والنصر يتمثل في «رجل فرد»، بل لا توجد في البطولة أنثى، لا يوجد أبطال جماعة.

ملايين العرب لم يستوعبوا هذا الخبر:

«أن تُعْطَــى جائزة نوبل للســلام إلى الإتحاد الأوربي، ويذهب زعماء الإتحاد للإحتفال، ويتسلموا الجائزة.

هذا لا يفهمه العربي، لأنَّ البطــل في خيالنا؛ (نبي؛ ولي؛ إمام؛ قائد عســكري؛ قائد ســياسي)، ولهذا دائما ننادي :أين أنت يا صلاح الدين؟

عقب نهاية محاضرة عن الوعي المجتمعي؛ سألت فتاة المحاضر : ما دور النُخبة في عملية النهضة؟ قال المحاضر: نحن النخبة، أنا وأنت النخبة!

سوف أحكي قصة حدثت في مدينة في كوكب بعيد عن الأرض.

في شـــوارع إحـــدى المـــدن فَتحـــات للـــصرف الصحـــي، مفتوحة وتسبب حوادث مميتة، خاصة في ظلام الليل، أصبحت تلك الفتحات مصايد للأبرياء، وقف أحدهم في وسط الميدان يُحذّر الناس ويستدعي وعيهم ويدعوهم لعمل جماعي لإغلاق كل تلـــك الفتحـــات، والنـــاس حوله يســـيرون إلى وجهتهم ولا يلتفتـــون إليه، في اليوم التالي بزر شـــخص آخر ووقف في نفس المكان وحاول تنبيه الناس، وتكرر المشهد ولم يلتفت إليه أحد وســـار كلٌ في طريقه، ولكن المُدهش أنّ الشـــخص الذي وقـــف بالأمس يُنَبِّه الناس، كان مارا في الميدان ورآه وســـمعه، ومع ذلك تَجاهله ومَضى في طريقه.

وفي اليوم الثالث قام شخص آخر وقال نفس القَوْل ونال نفس النتيجة، والمدهـــش أيضا أنَّ الإثنان الـــذان خطبا منفردين في الناس في اليومين الســـابقين رأوه وسمعوه وتجاهلوه!، هل من تفسير لما يحدث في تلك المدينة؟ هل أمل في إنقاذ تلك المدينة؟

فالذي يمتلك وعيا لا يريد إلا أنْ يكون رأسا وقائدا في الناس، يريد أنْ يكون وحده قناة الإصلاح وأنْ يُحســـب له شرف لقب رسول الإصلاح.

مدينـــة عجيبة ونخبة غريبـــة، تنتفخ أوداجهـــم وهم يُحَذّرون فرادى ولكن لا يتعاونون، ما الشبه بين هذه المدينة ومدينتنا؟

ويا تَرى أنت فين يا مرزوق!

سألت شيخ قريتنا عن الكبائر!

قال: يا بني؛ هناك كبيرة لكل عصر؛ ولكل مصر.

فقرية بلا طبيب كبيرة.

قرية بلا مهندس كبيرة.

قرية بلا خبز نِتاج أرضها كبيرة.

التخلف العلمي والفكري والاجتماعي كبيرة.

القرية التي يلعب شبابها في الطين وعلى القهاوي؛

بينـــما شـــباب القـــرى الأخـــرى يتســـابقون إلى الفضـــاء، هي قرية الكبيرة والجريمة.

القرية العالة هي أكبر كبيرة.

* * *

المصريون في البرزخ

لا أعتقد أنَّه يوجد مثل الشـعب المصري في فَشَـلِه أنْ يستمتع بالحيـاة، الحياة فن، وهناك شـعوب كثـيرة في مجموعها تُتْقن فـن الحياة بدرجات متفاوتة، شـعوب غنيـة وفقيرة، تتذوق وتستطعم الحياة في كل وقت،

فالفقر أو الغِنى ليسا شرط الاستمتاع بالحياة، بل هي التوقعات التي نَنْتظرها من الحياة، فمن يَتوقع ولا يَشـعر بأنَّ توقعه بين يديه لا يَنال متعة صافية، لا يلتفت إلى المحطَّات التي يمر عليها وهي كثيرة، بل ينتظـر دوما أن يطأ محطة أحلامه وتوقعاته كي يفتح مَسَام الإحساس بالسعادة.

نحن لم نتعلم فن الحياة في بيوتنا أو مدارسنا أو مساجدنا، فقط تعلمنا، الحذر والخوف والظن واصطياد الهم

كيف يشعر بمتعة الحياة:

- من يعمـل طوال اليوم فلا يجـد وقتا إلا للنـوم، إنْ كان فقيرا فهو يعمل ليكْفي نَفسـه وأولاده، وإنْ كان غنيا فهو يعمل ليزيد مـن أرْصدته في البنوك، الإثنان تسـتغرقهما وتسـتهلكهما الحياة، لا بد أن يَقتنع كل منهما أنَّ المتعة الآن وليس فيما بعد؛ مهما كانت الوسائل قليلة أو كثيرة.

- الذي يتمتع بالشباب والفتوة ولا يستطيع أو تستطيع الزواج، الولد يَجتهد ليُرضي فطرته ودينه بالزواج، والإمْكانات بعيدة، وطالما لم ينلها أو يقترب منها؛ فلا إحساس بالحياة، لا يسمح بتسَرّب أحاسيس الحياة إلا حين يفوز بنِصفه الثاني، والفتاة تَنْتظر من يطلبها، فهي في إنتظارٍ مُستمر، فلا حياة حتى تأتي تلك اللحظة، هما في برزخ انتظار الحياة، وحياة منغَّصة بالانتظار ليست بحياة.

- الذي هاجر ليعمل بالخارج، ترك أسرته وعاش وحيدا، يحاول أن يَسد ثَغرة الحاجة المادية؛ بينما يَتْرك ثغورا في أسرته تُثْقب بغيابه، كيف يحيا وكيف تحيا أسرته؟ إنهم في انتظار لمّ الشَّمْل، ولا طعم للحياة وبينهما ألاف الأميال، فالتمتع بالحياة مؤجَّل، هم أيضا في برزخ، برزخ انتظار ما يظنّون أنَّه بداية التمتّع بالحياة.

- الذي بلا عمل أو يعمل في غير تخصصه، فبعد أن أنفق عِقدين من عمره في الدراسة، وكان يظن التعليم قناة طويلة وشاقة ثم بمجرد عبورها يدخل بوابة الحياة، فيُلقَى به في أحضان نِصفه الحلو وفتاة أحلامه، ولكنه يُصدم حين يجد أمامه برزخا وراء برازخ؛ الوظيفة، تكوين البيت، الزواج،

كل برزخ منهم كفيل بأن يُستشهد فيه قبل أن يَعبره، والعمر قصير ومُهْدر.

من هو ضحية اشتباك مشؤوم في صراعات الحياة، فوقع في بِئْرٍ بلا قاع، وينتظر الحرية، ولا يشعر ببؤس الوضع المُعَلق بلا حـــل؛ إلا من وقع في البئر، يعيـــش في برزخ الانتظار، ليبدأ الحياة، ولا حياة مع الانتظار.

كيف تصفو لهم الحياة ؟ شعب مسكين، شعب مفعول به، شـــعب يعيش في دوائر صغيرة مغلقة، ليتها تُسعده، لكنها دوائر برزخية عنوانهـــا الانتظار، انتظار أنْ يُفتح في الدائرة ثقـــب يَنفذ منه للتمتـــع بالحياة، فلا يجـــد إلا دوائر انتظار أخـــرى تمتلئ بالخيبة والحـــسرة على مـــا كان يَظنها حياة، المصري داخل بيضة الديك، ينتظر أن تفقس.

- في كتاب قصة نَفْس للأديب والمفكر زكي نجيب محمود، يقول لصديقه المكتئب والذي يحمل قتبا فوق ظهره؛ (يا صاحبي إنَّ الحياة التي تؤرِّق صاحبها هي الحياة المريضة، فأنت لا تشعر بوجود أي جزء من أجزاء جسمك إلا إذا أعتل، إنك لا تشعر بوجـــود عينيك، و أذنيك أو معدتك أو قلبك إلا إذا أصابتها

أو أصابته العلّة، أما إذا كانت هذه الاجزاء سليمة فلن تَشعر بمجـــرد وجودها، فضـــلا عنْ أنْ تحس الألم مـــن حَملها، إنَّ حياتك فيما أرى قد مَرِضت فأحسست بوجودها ثم بِحَملها وثقلها وكأنما هي زائدة أضيفت إليك وليست منك ولا انت منها، ولســـت أعجب الأن أنْ أرى حياتك المريضة هذه قد بَرزت فوق ظهرك قتبا كبيرا.

في هذا الكتاب صوَّر ذنوب وسيِّئات وهموم الحياة التي هَزمته قد تكوَّمت فـــوق ظهره في صورة قتب كبير يســـير به وينام به ويشعر به في كل وقت.

وأنا أتصور أغلب المصريين يسيحون في الأرض وعلى كَتفهم مثل هذا القتب المعنوي الذي يُثقل كاهل كل منهم.

في الصورتين السابقتين، المصري المنتظر والمصري الذي يحمل هُموم الحياة فوق ظهره في المنام واليقظة ويعيش مُنَغَّصا متألما.

يُحكَى أنَّ أحباب ومتابعي الشـــيخ الراحل عبد الحميد كشـــك تجمهـــروا عقب الإفـــراج عنه عـــام 1982 مطالبـــين بعودته للخطابة في مسجده في منطقة العباسية حيث كان يخطب الشيخ

هناك لسنوات قبل اعتقاله، وكان التجمهر عقب صلاة الجمعة.

وأثناء اندماج الثائرين في الهتاف مطالبين بعودة الشيخ للخطابة، فجأة ظهرت سيارة نقل كبيرة محمَّلة بالبيض، وقفت على مقربة منهم ونادى مناد: « بيض طازج بنصف السعر»

وقف المتظاهرون قليلاً، ثم بدأوا يتسللون ناحية السيارة كي يقتنصوا الفرصة، وهم يقولون في أنفسهم: «ما المشكلة أنْ نبتاع البيض ثم نُكمل المظاهرة؟

دقائق قليلة والتف المئات حول السيارة، نَفَذ البيض في أقل من ربع ساعة، بعدها بدقائق حضرت قوات مكافحة الشَغَب والتي كان من المتوقع أن تَخوض معركة حامية الوَطيس في تفريق المتظاهرين، ولكن حدث ما هو غير متوقع، فلقد وقف كل متظاهر ينظر للجنود وهم ينزلون من سيارات الشرطة ثم ينظر للبيض الذي في يده والذي حصل عليه بسعر (لُقطة)، محاولاً تصور مصير هذا البيض في حالة مواجهة قوات مكافحة الشَغَب !

والنتيجة كانت انصراف المتظاهرين بدون صِدام، فالجميع اقتنع أنَّ الوقفات والمظاهرات يمكن تعويضها بكل سهولة، ولكن البيض لن يُعوَّض!

في المجتمــع المصري يَحمل كل منــا كرتونة بيــض تُعيقه عن الالتفات عنها خَشــية أن تقع فتَتهشم، قد يختلف أنواع وعدد الكراتــين ولكن النتيجــة واحدة، وهي الوقــوف محَلَّك سِر، نتحــرك داخل أحذيتنا خَوفــاً من وقوع البَيــض، يَخْفق قلبنا لاهتزاز البيض بين أيدينا أثناء السير في الحياة.

المواطن المصري يحمل كرتونة مليئة بالأعباء والمشــاكل والهموم تَجعله لا يفكر في إصلاح ولا تغيير ولا تَحْديث، كل همه هو تأمين الخبز والطعام والدواء والمدارس والمَلبس والمَسكن لأسرته.

المصري لا يحمل كرتونة بيض واحدة، بل يحمل كرتونة في يده اليمنى وأخرى في اليسرى وأخرى على كتفه وأخرى على رأسه ولو كان هناك موضع آخر لحملــه المواطن المصري بلا وعي، وهناك من المصريين من يحمــل الكراتين وهو يمشي على حبل مخاوفه وهواجســه، والجميع مغمورون بالتوتــر الذي وراءه الخوف على كراتين البيض البشري.

فما هي الكراتين التي يحملها المصري؟

لو تم عمل مســح لكل سكان كوكب الأرض لوجدنا أنَّ أكثر شعوب الأرض اهتماما بفَلذات أكبادهم هو الشعب المصري.

في التُراث والفِكــر والعرف المصري أنَّ الفرد المصري الصالح والناجح في الحياة هو الذي يُنْفق كل نفسه وحياته على أولاده، مال ووقت وهَمَّ واهتمام ورعاية، وينغمس في أداء تلك المهمة تجاه أبنائه وأحفاده حتى يُغادر الدنيا، وعندما يتم تشــييعه إلى مثواه الأخــير يُمنح لقب) الرجل الطيــب والأب الصالح)، ونبتهل جميعا في الدعاء: (اللهم أسكنه الفردوس الأعلى!)

المصري يَخْتزل كل تكاليف الديــن والخِلافة في الأرض، التي خلــق الله من أجلها بنــي آدم، في أولاده وأسرتــه، فالرغيف يُسَمِّيه (العيش)، ورعاية الأولاد يُسَمِّيها (رسالة الحياة).

المصري يُخَصّص كل ماله وعلاقاته ومواقِفه النفسية والسياسية والأخلاقية لصالح أولاده فقط.

في الأفــلام المصرية هنــاك الكلمة المشــهورة للمصري الذي يتعرض للخطــر أو التهديد، فيقول: (أنا عنــدي عيال عايز أربِّيهم – أو – أنا في رقبتي كوم لحم)

المصريون رهبان معبد الأولاد والأسرة، وليست المشكلة في هذا الموقف، ولكن المشكلة في أنْ لا يتبقى لدى المصري فائض طاقة لأيّ قناة أخرى خارج هذه الدائرة، وحين لا يدَّخر كل فرد جزء يسير من طاقته للمجتمع فما المصير المتوقع للمجتمع والفرد؟

الأسرة هي البيت والمجتمع هو الشـــارع، ولو كان الهَمّ كله لِما داخل البيت، هل تصفو الحياة للناس بينما الشـــارع قذر وخطر وخاطئ وقاس .. وقد يفيض ماؤه الهائج فيعلو ويغمر البيوت ومن فيها؟

❊ ❊ ❊

هكذا تُقْطَع الحياة

سافر بشر الحافي «الزاهد الشهير» من بلدة إلى بلدة أخرى، وفي صحبته أحد الفتيان الذين يَلزَمُونه كظِلِّه في كل خطواته، رغبة في التأدب والتعلم على يديه.

أصاب الفتى الظمأ، فقال له بشر: «لنشرب من أول بئر نقابله»، وكان في طريق السفر بين البلدان؛ مجموعة من الآبار وأماكن للخدمة ليستريح المسافر وينال الطعام والشراب، وتنال الخيول والجِمال حظها من الصيانة والراحة والغذاء.

وعندما بلغا مكان الاستراحة الأول؛ توجه الفتى للبئر ليشرب، فأمسك به بِشر وقال له: «لنشرب من البئر التالي»، خضع الفتى لأمر أستاذه.

ولما بلغا مكان الاستراحة الثاني وتوجه الفتى للبئر؛ قال له بشر: «لنشرب من البئر الذي يليه».

وهكذا؛ قطع المسافران الطريق كله بين البلدتين؛ دون الشرب من أي بئر، حتى بلغا البلدة التي يَقصدونها، عندها قال له بشر: «الآن اشرب».

ولما أرتوى الفتى؛ قال له بشر : «هكذا تُقْطَع الحياة».

المهارة في سياسة الحياة؛ أنْ نعرف متى نشرب، والشرب هو الجائزة، جائزة بلوغ الهدف وتحقيق المراد، ومنْ كافأ نفسه أثناء الطريق؛ يصعب عليه أن يُكمل سيره للهدف.

وكما قال الحكيم موبِّخا من يستعجل من تلاميذه: ألم ترو إلى العامل إذا عَمل، كيف يلبس أدْنى ثيابه فإذا فرغ اغتسل ولبس ثوبا نقيا، وأنتم تلبسون ثياب الفراغ قبل العمل!

كان مُعَلِّمي يُوبِّخني عندما يَغلبني الملل ولا أتمَّ هدفي، ثم أشرع إلى عمل جديد ثم لا أتمَّه أيضا، وكان يُحذرني من المهام الغير مكتملة.

يقول لي: (إياك وهمة الحمار الغير أصيل)، ثم ضرب لي مثلا فقال: الحمار الغير أصيل، قبل الكوبري بأمتار كثيرة ينطلق بكل نشاط وقوة، حتى يأتي أول الكوبري فتنفذ طاقته ويهبط نشاطه ويسير في ضعف وخمول ولا يستطيع عبور الكوبري، أما الحمار الأصيل فيمشي الهوينا ويدخر طاقته حتى يقترب من الكوبري فينطلق سريعا وبقوة فيعبره بسهولة ونجاح»

فوضعت للمصطلح مفهوما في خيالي، «الهِمَّة المتهوِّرة والمنْقَطِعة»، التي تَنشُب في عنف، ثم تخمد في فتور ومَلل، وأنني يجب أنْ أحافظ على سخونة الهِمَّة وحماسي لها حتى نهاية إنجاز الهدف.

ولو تأملنا تاريخ بلادنا لوجدنا أنَّ هناك عشرات المشاريع الكبرى التي تم افتتاحها باحتفالات هائلة وحضور الزعماء وقص الشريط والتصفيق، ثم تلى ذلك إنفاقا ماديا كبيرا ثم سكون ونِسيان.

عندما ينتصر الفريق القومي في مباراة، تمتلئ البلاد بالأفراح والأغاني الحماسية وأناشيد النصر والفخر، ونغني (تحيا مصر ومصريتنا حماها الله والمصريين أهمّه)، والذي ننتهي إليه عادة هو مشاعر الإحباط والخَيبة فلا نصل إلى نهاية البطولة، يكفينا أننا نحتفل مبكرا ونشرب من البئر الأول.

وفي قصة بشر الحافي خيط يرشدنا إلى السبب في أنَّ أغلب جهدنا في المجتمع يُهدر ويتبخر، رغم أن البدايات قوية.

في رواية رودين التي كتبها الكاتب الروسي «إيفان تورغينيف»، يقول: «إنَّ المرء إذا تحدَّث عما ينتوي أن يفعل؛ قبل أن يفعل، يجلب على نفسه الضر، وكان مثله كمثل؛ من يخز ثمرة

عــلى وشــك النضج بدبــوس، إنَّ في ذلك مضيعــة للجهد؛ وإهدارا لعصير الحياة».

وهكذا نجد أن الشرب المبكر والحديــث المبكر، يثقب الثمرة المَرْجوَّة مبكرا فتتلف قبل نضجها.

في فيلم «سنة اولى نصب»؛ يقوم الفنان المصري» حسن حسني «في «الجيــم» بتمارين لاكتســاب لياقة بدنيــة، يوجد رجلان على يمينه ويســاره يحمــلان الثقلين نيابة عنــه؛ بينما هو يقوم بالعد محاولا أن يصل لرقم قيــاسي، وفي تمرين الضغط؛ يَحمله الرجــلان صعودا هبوطا، ويُحصي العدد، ثــم يقول مُعربا عن رِضاه الزائف عن نفسه في فخر؛ «كويس كده».

وهنا يقفز إلى ذهننا ســؤال؛ هل نحن كأفراد مجتمع وشــعب، مثل هذا المحمول الذي يحســب إنجازات غيره، أم نحيا على جهدنا الجسدي والفكري؟ ألســنا كمجتمع وأفراد محمولون من الســلطة ونتعامل كأننا ريشــة في مهب إرادتهــا، تُرضعنا وتُهملنا وتحكم علينا أو تحكم لنــا، وتضع لنا القضبان ونحن نسير عليها؟

هناك فيلم شــهير بعنوان (ســواق الأتوبيس)، تم اختيار الفيلم كثامــن أفضل مائة فيلم في تاريخ الســينما المصريــة، بطولة «نور

الشريف»، وفيــه كلمة، أراد المؤلف أنْ يختــزل فيها الفكرة وهي الكلمة الجوهرة، وكانت عبارة عن سِباب يوجهه بطل الفيلم لأحد النشَّــالين في الاتوبيســات، يصرخ بها ويَنْشرها في كل الاتجاهات لينفث عما يكاد ينفجر بداخله من غضب ممزوج بالعجْز.

العجز عــن نَجدة أباه المريــض والمَدْيون؛ والــذي لم يجد مِن أقرب الناس إليه من يَســنده في محنته، بل وجد الأخوة والأهل يتنافســون في اســتغلال الحدث لصالحهم ومنفعتهم الذاتية، وفي القصة يبرز انكماش وانعزال أفراد المجتمع نَفسيا وشعوريا وماديا بحيــث لا تتبقى أي عاطفة أو نجدة لتنفق خارج نطاق كل أسرة، حتــى لــو كان هــذا العطاء لــلأب العجوز الذي كان هو الســبب في يُسر وثراء كل أبنائه، اكتشــف بطل الفيلم ولأول مرة في اختبار حقيقي للجميع، أنَّ أخوته جميعا أصبحوا غُرَبــاء وكأنَّه لا يعرفهم ولم يعرفهم، أصبحت كل أسرة وكأنها قبيلة وحدها في جزيرتها، لا يهمها منْ حولها وما حولها.

في أحد المساجد والإمام يلقي درسا على الناس؛ الناس الأتقياء والمُنْصتون في خضوع وخشــوع؛ استأذن شاب من الواعظ في إلقاء كلمة يوجِّهها لهم، قام الشــاب بذكــر بعض الأمراض المجتمعية التي تمَس الكل، وذكر أننا جميعا من تَسَــبَّبنا في تلك

الأمراض ونستطيع بجهد يسير وتعاون وقرار أنْ نتغلب عليها، وكلما أشار إلى ظاهرة عبَّر عنها بأنها» إهانة للجميع»، ولكنَّ الناس نظروا إليه في بلادة؛ وكأنه يتحدث عن مشكلة في كوكب آخر، وعيونهم البليدة والساخرة تقول له: هذه ليست وظيفتنا؛ بل مهمة الدولة؛ ونحن لسنا مسؤولين، بل نحن أصغر من تناولها وحلها، توقف الشاب ثم هز كتفيه وانصرف.

ثم عاد القوم ينصتون في خضوع وخشوع للواعظ الذي يكرر قال الله وقال الرسول، الواعظ الذي وجد خطاب الشاب خارج المقرر، فأعرض عنه وأعاره أذنا صمَّاء مثل الآخرين، في اليوم التالي، وفي مسجد آخر، تكرر المشهد؛ وطرح الشاب مشكلة أخرى، وعبَّر عنها ثانية بأنَّها ؛ «إهانة وعار للجميع»، ولم يشعر أحد بالإهانة، وصبروا عليه كثيرا حتى انصرف عنهم ثم اسلموا أذانهم للواعظ الذي يَحقنهم بجرعة الوعظ الذي أدمنوه، ظل الشاب يفعل هذا في كل مناسبة ولشهور طويلة، وفي يوم وعقب الانتهاء من دعوته لهم؛ طاش صوابه وفقد رشده وصرخ فيهم قائلا: ألا تشعرون بالإهانة!

ولما لم يجد صدى؛ قال لهم : يا أولاد الكلب! (مثلما كان يردد سواق الأتوبيس في الفيلم)، فاشتعلت وانطلقت كرامتهم

الطائشـــة أخيرا، وأخرجـــوا فيه كل الطاقة التي أراد الشـــاب أنْ يخرجوها في اصلاح المجتمع.

الله يرحمه ويتقبله عنده في الشهداء .. تفرق دمه بين القبائل.

في منتجع ســـياحي؛ تقول امرأة عجوز لأخـــرى: «الطعام هنا شَنيع و مُقَزِّز»

ردت عليهـــا جارتهـــا مؤكـــدةً عـــلى كلامها: عنـــدك حق؛ وكميات صغيرة جدا!

كذلك شـــعورنا نحو الحياة، فنحن نشـــتكي منها ونتحسر أنها مليئة؛ بالعزلة؛ والبؤس؛ والعذاب؛ والتعاسة، لكن يا خسارة؛ تُخْتَم سريعا.

نحن في حياتنا كشـــعوب ومجتمعات، نشـــتكي كثـــيرا ودائما، نتذمر من كل شيء ونذكر كل عيب، ولكن يا خسارة؛ نتمسك بما نشكوا منه ونريده أنْ يستمر، مشاعر متضاربة وغير مفهومة ولكنها مشـــاعر ضـــارة، نلعـــن الراقصة ونحـــن نُبَحْلق فيها ونكاد نأكلها بأبصارنا وغرائزنا

هل تذكرون مشـــهد الزوج الذي يَخطب في الناس ليحثَّهم على أن يتمســـكوا بذكوريتهـــم وأن يكونوا سي الســـيد في بيوتهم،

ويوبِّخ كل من يطيــع امرأته أو يترك لها الحبــل على الغارب، وأثناء اندماجه في الوعظ، تأتي زوجته من بعيد وتقترب للجمع وتنادي بصوت مســموع: «تعالى يا أحمق»، فيبتســم ويتحول لحَمَل وديع ويسير وراءها دون أنْ يلتفت لأحد، هل أقول لكم المشــهد الأشــد تناقضا، أنَّ الجمهور لا يَشعر بأي تناقض بين كلامه وبين خُضوعه لزوجته وتقبَّله لإهانتها.

هذا حال كل أفراد المجتمع، يشــتكي ويلعن ويُجرح ويتألم، بل ويضحك ويُنكِّت ويسخر، ولكنه يُقَبِّل يد من يلعنه ويشكوه، ومن يلعنه ويشــكره ليــس شَرطا أن يكون شــخصا، بل ربما ضَعفا، فهو يشكوا الفســاد ويخضع للفاسدين ويكون خادما للفساد، يعيش التناقض كما يسير البهلوان على مختلف الأحبال.

إننــي أرى المجتمع مثــل المريض الذي تنتــشر فيه الأمراض الكثيرة والخطيرة والتي ليســت مُزمنة، ولــكل مرض وحده علاج شافي، ولكن الخطورة في أنَّ هذه الأمراض معا لو تُركت مجتمعة لأودت بحياته، وهذا المريض مطروح على سرير العناية الفائقــة، وكل الأجهزة متصلة بــه، ولكن لا تعمل، لأنَّ تحت أصابع يــده يوجد زر صغير، عليه فقط أنْ يضغط عليه، ولديه القدرة على ذلك، ولكنه لا يفعل، بل يستمتع بالغيبوبة اللذيذة

التي تنشرها الأمراض في جســـده، ويؤجـــل الضغط على الزر أو ينتظر من يضغط عليه نيابة عنه.

هذا مجتمعنا وكل مجتمع بشري، مهما كانت مشـــاكله فهي قليلة لو تعاونوا بوعي على حلها، وهـــي سرطانية مُهلكة لو تغلبت الأنانية والســـلبية وعملـــوا في دوائر بلا أســـنان وزهدوا في مطاردة الوعي.

❊ ❊ ❊

مسارات صناعية

«البلياتشو أو المُهَرِّج»، شخصية درامية وتاريخية شهيرة، ألهمت العديد من الكُتَّاب مثل وليام شكسبير وفيكتور هوجو، ملابس مبَهْرجة وشَـــخَاليل، كثير من التنطيط» والأكروبات والنِكات والضَحكات الشريرة أو الساذجة.

ثم تطورت تلك الشـــخصية مأساويا، نشأت عنها مهنة وخِبرة خطيرة وغير إنســـانية، تُجرَى عمليات قاســـية لتشكيل الوجه بحيث يكون باعثا على الضحك بمجرد رؤيته، يقوم المحترف باختيـــار طفل، يُعَلق أثقـــالا متفاوتة الأوزان والأشـــكال في أماكن من وجهه، الأذن، الشِفاه، الجِفن، الأنف، الخُدود الخ، تظـــل تلك الأثقال مُتَدَلِّية وضاغطة لســـنوات؛ هي ســـنوات نمو الطفل، ومع النمو يَحدث تشـــوّه في الوجه واضطراب في النفسية، فيتسع الفم والعين، وتتدلى الشفاه، وتتضخم الأذن، فلا يملك من يرى المهرج إلا أن يغلبه الضحك الهستيري، بدأ ظهور المهرج في السيرك ثم أصبح مُضحكَ الملوك.

لو سَـــلّطنا الضوء على هذا المهرج، وتخيلنا مشاعره التي أهينت ووجهه الذي تشـــوَّه ودوره في الحياة الذي تم رسمه رغما عنه،

هل تطيب له حياة؟ وهل نستطيع تعويضه عن الظلم الذي نال حياته!، هذا هو النموذج الأول الصارخ في التدخل الصناعي في مسار الناس.

الفَرْخ عندما يكون داخل البيضة، تُلهِمه الغريزة أنْ يَثْقب جدار كهفه المظلم بنفسه ويُحدِث تَشَققات فيه حتى يخرج للحياة؛ يخرج سليما مؤهلا لتحديات الطبيعة، لكن لو تَدخَّل الإنسان فساعد الفرخ على الخروج بأن أحدث بنفسه شقوقا وأخرج الفرخ؛ سيخرج الفرخ كسيحا وعليلا ويحيا نَكِدا ويَقْصر عمره. هذا هو النموذج الثاني الصارخ في التدخل الصناعي في مسار المخلوقات.

عندما يتم تحويل مجرى النهر، الذي حسب قوانين الطبيعة يسير هادئا واثقا من الأعلى إلى الأسفل، فيتدخل الإنسان فيقوم بسد المسار الطبيعي للنهر أو يُضيِّق عليه، أو يَحفر فيه مسارات فرعية، تتحرك صاعدة لأعلى، فتتشتت مياه النهر ويتكدَّر، ويَفيض هنا ويغور هناك، فيتساءل الإنسان ما السبب؟ ولا يعرف السبب إلا بالبحث الميداني والعلمي والدراسة.

هذا هو النموذج الثالث الصارخ في التدخل الصناعي في مسار الطبيعة.

في الثلاث نماذج السابقة، لو تُرك الأمر للطبيعة والغريزة لما عانى أحد، ولكن الأدْهى والأفدح هو التدخل الصناعي في مسارات الدول وأفكار الشعوب، تَدَخُّل عنيف أو خبيث، يُشوّه الحياة ويَبتلي الشعوب والبلاد، ولو تُركت الشعوب دون تدخل شرير لتقدمت وأبدعت.

في ليلة مظلمة وعلى غفلة يَضع شخص شرير حجرا في طريق الفيل السائر في أمان وسلام، فيتعثر ويهوي مُرتطما بالأرض التي تضطرب تحته، فيفقد الوعي وتنزف دماؤه، ولو كان مع الفيل مصباح أو صاحب رشيد، ولو كان الفيل محترسا، لانتبه لأحجار الطريق وواصل سيره، وعثرة الشعوب والدول مثل عثرة شعب الأفيال الضخمة، يكون عنيفا وداميا وعسيرا على أن تُشفَى جراحه أو أن يواصل سيره.

هناك مشهد سينمائي متكرر وشهير في السينما المصرية، شاب يحلم أحلام الشباب، منغمس في حياته الدراسية ومُطارِد لأحلام النجاح والفوز بفتاة الأحلام، الحياة جميلة وعنوانها الأمن والأمل في بلوغ السعادة، يزوره عمه ويخبره أنَّ عليه ثأر، والثأر يعني سلوك حياة مختلفة، يُخاطر بنفسه ويُميت ضميره، يسير بنفسية وعاطفة القسوة والرغبة في القتل الحقود.

ألقــت العائلة في حياة هذا الشــاب حَجَرا لا بــد أن يَتعثر فيه، وتدخلت في مســار حياته فشوهتها وأفقدتها جوهرها، والشاب في صراع، فلو رفض المهمة المقدَّســة عائليا سوف تَطرده العائلة أو تؤذيه، ولولا هذا التدخل في حياته لعاش حياة سعادة وإنجاز.

هُزِمت مصر والعــرب في حــرب 1967م، احتلت إسرائيل أكثر من ثلاث أضعاف مســاحتها التي كانــت عليها، الإهانة لا مثيل لها، وسقط الغرور من سمائه، ولم نَقذف إسرائيل في البحر ولكــن تلطخنا بعار عالمي يفوق الخيــال، وبعد أنْ كان الدعم المعنوي للجنود بحفلات ترفيهية تُحييها راقصات كما في الصور الشــهيرة، حل مكانه التوجيه الديني من الأزهر والكنيســة، حتــى أثمر نصر أكتوبر عام 1973م، والذي انطلق مع صيحة الله أكبر.

في تلك اللحظة أصبح بديهيا لدى الشــعوب العربية أنَّ الدين هو الذي ســوف يتصدر، يأخــذ مكان شــعارات الناصرية والقومية والشيوعية والعروبة.

وكان المتوقع أنَّ الثمرة الطبيعيــة هي صعود مُنْحنى الأخلاق والانسجام بين المصريين، ويبدأ المصريون مسار الحياة الكريمة والناجحة، فمسار الدين لا يمكن أن يأتي إلا بالخير.

ولكن الدين سُلطة شعبية، والسلطة لا بد أن تُستعمل بعناية ووعي ونِية سليمة، فلم يدعه الأشرار يسير مثل الأنهار في جَرَيانه، بل حَقَنوه بما كدَّر على المصريين والعرب كل شيء.

التدخل الأول:

واجه السادات في بداية حكمه مُعارضة قوية ممن كانوا يطمعون في أن يكونوا خلفاء لناصر، هداه تفكيره لفكرة شديدة الخطورة، أخرج الإسلاميين من السجون التي مكثوا فيها سنينا طويلة بلا أمل في الحرية، هذا القرار في حد ذاته عملا طيبا، فالحرية من حق الجميع، ثم أطلق يدهم في نشر أفكارهم الدينية والأيدلوجية في الجامعات والمؤسَّسات والمدارس وكل مكان، والمصريون متدينون بطبعهم ويُقَدّمون الدين على كل شيء، فتراجعت بسهولة كل التيارات الأخرى، وضعف خُصوم السادات وتغلب عليهم بفضل الإسلاميين، وكان خطأ الإسلاميين هو الإقصاء، نظرا لأنهم نظروا للآخر خلال عدسة العقيدة والفكر، وهذا المنظور يجلب الاتهام في إيمان ونية الآخر، لم ينظروا إلى أنَّ لكل تيار أهداف نبيلة وأفكار مشتركة مع الجميع، فقد كانت «الحرية وطيب العيش والعدالة والمساواة والشفافية «من أهداف الجميع، وهذه الأهداف تكفي

كبداية قوية للعمل المشـــترك، ولكن الفخ الـــذي دائما تقع فيه الجماعات الدينية هو الخضوع لشـــهوة إزالة المنافِس باستخدام اللسان والوازع الديني، ثم تخلو الساحة بهم، ثم يكونوا صيدا سهلا لمن أطلق سراحهم.

ومنذ تلك اللحظة زُرِعت ونبتت بذرة الحساســية العميقة بين التيارات الدينية وبقية التيارات والأفكار الأخرى، وأصبحت العلاقة بينهـــم كصراع الديوك، صراع نفـــسي أكثر منه فكري أو ديني، وانقسم الشـــعب الانقسام الأول الحاد؛ إسلاميين في مواجهـــة «علمانيين . ناصريين. ملحدين. يســـاريين. قوميين. ليبراليين .. الخ ، «صراع نفسي وثأري وحَقود، ومازال يشتعل ويشتغل إلى اليوم.

ولو انتبه الإسلاميون إلى أنَّ الإسلام يَحُضّ على الوحدة ويَبْغض الفِرقـــة ويدعوا للتعاون على المشـــترك، لكانـــت النتيجة هي الانسجام والصالح للجميع، ولكن للأسف ضيَّعوا الفرصة .

التدخل الثاني

تُركـــت المســـاجد للإســـلاميين، وهنـــا حدثـــت الفوضى، فخرج التراث عشـــوائيا من أبواق المســـاجد وخُطب الجمعة، والمساجد كثيرة والخطباء حديثي التدين وساذجون وبلا خبرة،

يملكــون فقط الحماس الديني والــتراث في الكتب، وانطلقت أبواق المســاجد بحكايات عن النصارى، واخترقت الكلمات آذان المســيحيين، وأدركــوا لأول مرة أنَّ أســمهم النصارى وليســوا المســيحيين، وســمعوا القصص عن الصليبيين ولم يســتطيعوا تجاهل ســهام اللعنات والدعوات التي تنطلق من الميكروفونات، الخطيب يقــول اللهم العن اليهود والنصارى، وتســاءلوا! هذه لعنات ضــد من؟ وتكلــم المتدينون وكأنهم وحدهم في البــلاد، لا مراعاة لطائفة دينية ســكنت مصر منذ قرون طويلة قبل أن يدخلها الإســلام، ، وانتشرت الشائعات صارخة بالتحذير مــن الأطباء النصارى الذين يقومون بجعل المرأة المســلمة عاقرا حتى لا يتكاثروا، ودعوات بالحرص على أن يقــع القِرش في يد المســلم، فانكمش المســيحيون، ولجأوا للكنيسة كلهم يتكوَّمون حولها ويلتصقون بها، وتلقوا الخُطب المضادة التــي تزرع فيهم قناعة أنَّهم أصــل مصر وأنَّ من فيها من المســلمين ضيوف عليهم، وزادت المســافة بين الجزيرتين المسلمة والمسيحية، وتصدَّرت الهوية الدينية المتعصبة على الهوية الجامعة، وهي الوطن والمواطنة، ووقع الفريقان في الخطأ الذي لا يسهل تداركه، هنا حدث التشــوه الثاني لمسار وأداة الدين، حيث أصبح سهما في جسد الوحدة الوطنية.

التدخل الثالث:

حين حدث الغزو الروسي لأفغانستان عام 1979م، طلبت أمريكا من العرب والرئيس السادات، حثّ الشباب على الحرب في أفغانستان، وأنْ يشتغل كل الإعلام لترويج فتوى «أنّ من واجبات المسلم حين يحصل اعتداء على أي دولة إسلامية أن يَهبّ الجميع للدفاع عنها»، وأتذكر مشهدين لم يغادرا ذاكرتي؛

الأول: حين تم توزيع استمارات رسمية من الدولة علينا في الفصول الثانوية الدراسية، تَعرِض على من يشاء التوقيع للتطوع للجهاد في أفغانستان، وقام كثير من الطلبة بكل الفصول بالتوقيع على الورقة، ولكن لم يتلوها اجراء تنفيذي.

الثاني: كنت أصلي فريضة الجمعة بمسجد مجاور لبيتي، وكانت هناك أوامر رسمية بأن تكون الخطبة في كل مساجد الجمهورية عن موضوع غزو الشيوعيين الكفرة لأفغانستان ، وأذكر الخطيب وهو ينهي خطبته بعتاب مؤثر حيث قال: «هل بلغ بنا الحال أنْ نستورد غيرتنا على ديننا من الأمريكان!

ولم يكن الخطيب أو أي أحد يدرك الحيلة التي حدثت، لم يخطر ببال أحد أنَّ الأمريكان أرادوا أن يستنزفوا الروس من رصيد

العرب المسلمين، ويذبحوا الدبّ الروسي بسكين عربي مسلم، وهذا ما حدث بالفعل، حيث كانت حرب أفغانستان من أكبر أسباب انهيار وتفكك الإتحاد السوفيتي، وانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالأرض وتقلدها منصب الزعيم الأوحد لتستفرد هي وإسرائيل بالعرب خصوصا.

في تلك القصة نلاحظ أنَّ السياسة للمرة الثانية ترسم مسار التدين الشعبي لصالحها، وتُقحم مفهوم الجهاد وتُوسّعه لغرض سياسي، وبهذا تم ضخ طاقة التدين في غير مساره المرجو من شيوع الأخلاق وبث روح السلام ويقظة الضمير والوحدة بين المصريين، ولكن امتزج بالعنف الحقود والغضوب.

تلك نماذج للتدخل في مسار الشعوب والحياة، ولو تركت بلا تدخل؛ لكان السلام والسلامة، وعلى النخب المثقفة أن تَنتبه لما يُدَسّ في أطباق شُعوبهم من مواد سامة ومُخدرة ومُهَيّجة، وتحذرهم قبل أن يتناولوها متحمسين بحسن نية.

❊ ❊ ❊

التلاميذ والزلعة

لو تَذكَّرنا الفتاة الرِيفية منذ ما يقرب من قَرْن، لتَخيَّلنا مجموعة من الفَتَيات يَسْتيقِظن مُبكرا ثم يَخرجن في جماعات، كل واحدة منهنَّ تَحمل فَوق رأسِها الزَلْعَة، يقْطَعن عِدَّةْ كيلو مترات حتى يَصلن إلى صنبور المياه الوحيد بالقرية أو شَط الترعة، وتَقوم كل فتاة بملئ الزَلْعَة بالماء ثم وضعها على رأسها، يَرجعن معا بهذا الحِمْل الثقيل وهنَّ يتبادَلن الضَحِكات والحِكَايات، قد تتكرر هذه الرحلة مرة أو مرتين في اليوم ولا شَكْوَى ولا مَلل، لم نسمع عن أي فتاة خَطَر ببالها التَخَلي أو التَمرّد على هذه الرحلة اليومية، بل ربما هي فُرصة المَرَح الصَباحية التي تَتلهّين بها وتتنفّسن حكايات البنات بِحُرِّية، لأن المجتمع قام ببرمجة الجميع بحيث يَجري هذا النشاط تِلقائيا وبلا تَردد أو إعادة تفكير.

ولو استيقظت إحدى بنات العصر الحديث صباح اليوم ، ووجدت المياه مقطوعة، وأخبرها الوالد أنَّ عليها أنْ تَقوم بنفس الرحلة القَديمة لتجْلب المياه للبيت، لن تتخَيَّل البنت هذا العمل أبدا، وسَتجده ثَقيلا وسَخيفا وخياليا وخُرافيًّا،

بل ويُميت من الضَحِك، وسوف تُعلنها صَراحة بأنَّ الموتَ عَطَشا أرحم عندها من هذا العمل.

الفرق بين الأمس واليوم هو طبيعة المجتمع والحياة، فالمجتمع في عملية متواصلة من التخلي عن برنامج قديم ليحل محله برامج أخرى، يُقحمها في حياتنا تَغَيّر الزمان أو المكان، ونتعلم من هذه القصة أنَّ المجتمع يَستطيع أن يَفْرِض على أفراده أعمالا صَعْبة ومُجْهِدة وشاقة، ولا يَشْعر الأفراد بمشقَّة هذا المجهود؛ ولا يخطر بالبال الكَفَّ عنه أو التمرد عليه، بل يفْعلوه مثلما يَتَنَفَّسون.

أكبر مثال اليوم يتطابق مع قصة الزَلعَة وفي نفس الوقت يَخلوا من أي هَدَفِيَّة ويكاد يكون مثالا مُضْحكا ومُستَغْرَبا أنْ نَنْغمس فيه حتى اليوم؛ هو مثال: (الدُروس الخُصوصية)!

اليوم من المَقبول والمُبرمج إجتماعيا أنَّ أغلب التلاميذ يَتلقَّون دروساً خُصوصية في كل المواد، بل هناك من يلتحق في المادة الواحدة بأكثر من مُدَرِّس خاص، وهناك من يَنْضم لمجموعة للشرح بالإضافة إلى أخرى للمراجعة.

في الجانب الآخر من اللوحة هناك ما يُعْتبر أعجب العجائب في التاريخ، أولا: المدارس والمُدرِّس والنظام الدراسي واقعا لم يُلغَى، ومع ذلك يَشتكي الناس من تراجُع العملية التعليمية داخل

المدرسة ومن قِلة الجَدْوى منها، ولكن السؤال المحيِّر هو: ما هو الأسهل! أنْ يقوم أولياء الأمور بالجانب الرِقابي الذي يُعيد المدرسة لسابق وظيفتها ورسالتها؟ أم الاستسلام للدروس الخصوصية التي تستنزف كل شيء وتُنكِّد حياة الأسر وتستنزفها؟ لماذا يَسْكت الناس على تَدهور العملية التعليمية؟ الأمر يحتاج تكاتُف في الرفض وإصرار عليه، فلماذا هذه السلبية المثيرة للدهشة؟

ثانيا: كل المواد مُتاحة مجانا على اليوتيوب، ويقوم بشرحها مدرِّسون كثيرون ومن بلاد مختلفة، وهذا يعني أنّ أي طالب يستطيع أن يَجلس أمام الشاشة ويُشاهد مجَّانا شَرْحا مَرْئِيًّا، وله حرية اختيار الشارح وإيقاف الشرح وإعادته ليَكتب ويَفهم، بل هناك في الشبكة العَنكبوتية برامج تقوم بحل المسائل مقابل مَبْلغ زهيد وهناك كُتُب مجانية بلا عدد.

ولا أحد في المجتمع يَسْتغرب أو يندهش أو يتحسّر على المال والوقت المَهدر في نشاط الدروس الخصوصية الضال والأحمق والغير هَدفي.

هذا يذكرني بالمطبعة التي تأخَّرت عدة قرون عن الدخول للدولة العثمانية والدول الخاضعة لها؛ وكان المُبرّر فَتوى العلماء بأن الحِبر النَجس لا يجوز أن يَكتب الآيات القرآنية المُقَدسة الطاهرة، ووراء تلك الفتوى كان أكل العيش المُهَدَّد،

حيث كان الناســخون والخطَّاطون بأعداد ضخمــة ولهم مَكانة خاصة في المجتمع ووراءهم تِجارة وصناعة ومصالح هائلة، فكانت ماكينة واحدة أو عدة ماكينات تعمل عمل كل هؤلاء النَسَّــاخين، فكان الســكوت عن هذا السَفَه وراءه المَصلحة الشخصية لفئة من المجتمع فَوَّتَت على الأمة خيرا هائلا كان سيطول الجميع، ونحن ندرك أثر المطبعة على أوربا في إحداث النهضة.

حين نقارن بين قصة الزَلْعَة والدروس الخصوصية سوف نَتَخيل مشهدا لا معقول، بنات إحدى القرى ولديهنّ في كل بيت عِدَّة صنابير للمياه بمختلف أنواعهــا وأحْجامها ودرجة حرارتها، ولكنَّ المَحْبــس الرئيسي للمياه مُغلق، وبدلا من الإصرار على فتح المَحْبس، تُجْبَر كل فتاة أنْ تَتجاهل كل هذه الوفرة من المياه وراء المحبــس الرئيسي، وتَحْمل الزلعــة وتذهب كيلو مترات للترعة أو النهر لتَغرف منه ثم تعود حاملة للزَلْعَة على رأســها، وبالمثــل نجد الطَلَبة اليوم، لديهم مــدارس وفيديوهات شرح وكتب مجانية ومصادر علــم وتعلم بلا عدد، ومع ذلك ينالون دروسا في كل المواد، مشهد مضحك ولكنه الواقع.

وكما قال المتنبي:

وَكم ذا بِمِصرَ مِنَ المُضحِكاتِ ... وَلَكِنَّهُ ضَحِكٌ كَالبُكا

❊ ❊ ❊

عندما تزول أسباب الحياء

أتذكر فيلما أمريكيا أثارتني فكرته، رجل عجوم تجاوز الثمانين، يقرر السفر لزيارة حَفيدته الجامعية، لم يجدها والتقى بصديقتها التي تُشـــاركها في السَـــكن، أخبرته أنَّ حفيدته ستعود خلال أيام قليلـــة، كان عليه الانتظار، فاضطر للمبيت مع الحَســـناء العِشرينية، كان ســـلوك الفتاة بدون أي تحفظ في وجود الرجل العجوز، تَنْزِع وتُبدل ملابِسها أمامه وكأن الذي معها فتاة مثلها، أصاب العجوز الذهـــول من عُرْيها وعـــدم مُبالاتها بوجوده، ولم يقف الأمر عنـــد هذا؛ بل ظلَّت تتحرك أمامه طوال الوقت بملابس لا يمكن أن تُعرَض ســـوى أمام فتـــاة مثلها، وتُعَلق على مشـــاهد التلفاز بكلمات فاحشـــة تصـــدم آذان أي رجل، مر يومان على هذا الحال والرجـــل مُتَأدب في وجودها ورَزِين وقليل الكلام، ثم فجأة انْفَجرت منه ثَوْرة عارِمة وأخَذ يَصْرخ في وجهها، وهي متجَمِّدة من الدَهْشـــة، لم تَفهم سَـــبب ثَورته ولم تَشعر بأي مُقَدِّمات لهذه الثورة.

ثم أخيرا فَهِمَت أنهـــا كانت تُهينه بكل تَصرّفاتها خلال اليومين الماضيين، تهينة بعدم ملاحظة أو مُراعاة أنه رجل وهي أمرأة.

نعم هو جَد وهي صديقة حفيدته، وبينهما ما يَزيد عن خَمسين عام، وهو في سِن يَصْعب عليه إحياء أحاسيس وطاقات خَمَدَت فيه، ولكنه يَشْعر بنَفْسِه رجلا ، ولم يَخْطر بباله أن تَفوت ملاحظة أي أمرأة هذه الحقيقة، ولذلك غَمَرته مَشاعر الإهانة.

ولو تَكَلّفَت الاحتشام في وجوده لما شعر بهذه الإهانة، ولكنه لم يحتمل أن يعامل كرجل مَضَى زمنه، لأن مشاعر الرجولة لا تموت.

لا أدري لماذا يَتكرَّر أنْ يَخطر ببالي هذا المشْهد حين أحاول تَصْوير حالنا العربي، فالكل يَتحرك ويَتصرَّف في هذا العالم وكأننا هواء، وليت الأمر يَتوقف عند أنْ يَتَعرَّى الجميع أمامنا دون خَوْف الاعتداء أو الانفعال، أخشى أن يَصل الأمر أن يتَجَشَّأوا ويُفرِغوا أمعاءهم أمامنا أو علينا وكأننا فَراغ، ولا أدري حين يفعلون هذا؛ هل سنشعر الإهانة أم سَتَفوتنا ونسهو عنها، أو ربما سنبتلعها مُرْغمين، فالكرامة والإهانة اختيار.

❊ ❊ ❊

التفاحة بين شاب وشيخ

عندما أتذكر كل ما أمْتعني في طفولتي وصِباي؛ أشتاق لِتكرار التجربة، لعلي أسْـتَعيد مذَاق الماضي، كنت أحلم بِشِـيكولاتة «كُرُونـا»، ثمنها ثلاثة قروش ونصف، اشـتريتها في طفولتي مرة واحدة مُتَهوِّرة، والسـبب أنني وأخي الأكبر؛ لم نُنفق أبدا مصروفَنـا اليومي في طفولتنا سـوى على مجَـلَّات الأطفال، اليوم أستطيع تناول أشْـهى وأطعم شيكولاتة، وكلما تَذوَّقت نوعا بَحثت عـن طَعْمه ومذاقه القديم الذي أطارده في خيالي، وكما يقولون؛ «الي فات مات»، والماضي لا يعود، وطَعْم الماضي أيضا لا يعود.

أمْسـك بروايات؛ يوسف السباعي وإحسـان عبد القدوس وغيرهما مـن فِرسـان الرومانسـية، وأقرأ نفـس الروايات التي كانت تُحَلق بي في السـماء وتلوِّن خيـالي بأزهى الألوان، فأعجز عن تسـلق الخيال عاليا، أشعر وكأن خيالي أصبح ثقيلا وأخْلد إلى الأرض، أصبح خيالي سَمينا وسَميكا.

حتى أزْهـار الرَبيع التـي كانت تَمْلأ وجـداني وخاصة زهرة البرتقال، فحَوْل مدينتنا كثير من القرى التي تَشْـتهر بزراعته،

تَهبّ نسـائم تلك الرائِحة السرمدية إلى أنوفنا وتقتحم بيوتنا، لا يمكن وصْفها، كل ما أتذكره هو تَعْبير خاص بي في شـبابي؛ «أحلام بِطعم زهر البرتقال»

هذه الرائحة تُثير الخيال وتجعله يَنْطلق إلى عالم الأحْلام، أحْلام بالألوان، حلم الشباب والفتوة والحب الصافي والانسجام مع فتاة الأحـلام، الفتاة التي أتخيلها تتأملني في عشـق وإعجاب بهذا السـوبرمان، يا لها من مُتعة لا توصـف، إياك أن تَتخطى الصبا دون أن تَتذوق هذا الخيال.

اليوم أملأ أنفي بتيارات من تلك الرائحة، أجلس وسط حديقة البرتقال كالغاطِس في مِسـبح من عِطر، لا أعرف ماذا حَدث؟ هـل أنْفي لم تَعد تلك الأنف؟ أم أصابهـا تَسْريب مثلما يحدث في المواسير حين تَصْدأ؟ للأسـف الأحلام البايْتة مثل الطَبيخ البايـت. الأحلام لا تفعـل فعلها إلا في زمان ومكان وسِـن وشَوْق الفتيان والفتيات.

الشباب شُعلة الجنون، الذكاء، الاندفاع، بل والغرور، للشباب اسـتمتاع كامل بكل لذَّة، (الطعام، الشراب، الجِنس، العِطر، السـيارات، الملابس، الرحـلات، الألعـاب، المُغامرات.... الخ.(الشـاب ينفعـل ويتفاعل مـع كل هذا بجميـع كيانه

وأحاسيسه، فكما هو شاب، فأحاسيسه شابة لم تَبْهت صِبْغتها، ولم تَجفّ مادتها. عندما تُصافح الشـــاب َيشدّ على يديك بقوة، وربما يَعْصرها، يريد أن يُشعرك بقوته، إنْ وجد جمالا أو عضلات مُقسَّمة في جَســـده؛ أرتدى ما يُظهرها في استعراض مُتباه يسير على قدمين، الشباب تَضحية وبَذل، فمع قوة إحساس الشباب بالحياة، هناك قوة مساوية في بَذلها والتضحية بها، الشاب يمتلك كامل حياة ولا يبخل بها، والشـــيخ يمتلك بَقية حياة ويتشَبَّث بها بقوة.

هل يدفعني هذا لأقول: ليت الشبابَ يعود يوما؟

أنا لا أتمنى أنْ يعود الشباب، وأفزع أن يعود، تجربة الحياة لم تكن بتلك الصورة والذِكْرى الوردية، فالشباب إنْ وصفناه بالزهرة فســـوف يَستلزم ذلك تَذَكّر كثافة أشـــواكها، الحياة سلسلة من الأحلام الطائشـــة، والأوهـــام الضالة، والمخـــاوف العَبِيطة، هل يَتمنـــى الطفل «بِليـــة» بعد أنْ أصبح «أســـطى قد الدنيا» أن يَخوض التجربة ويُعانيها ثانية؟

كم ناله مـــن الصَفعات على قفـــاه وصدْغِه تأديبـــا كلما أخْطأ أو تأخَّر أو تَغابَى، كم وقع أســـيرا في ســـجن الرعب؛ من أن تأكُله أمّنا الغولة أو أبو رِجْل مَسلوخة، حين كان أسيراً للبراءة،

كـــم من أداة طاشـــت من يده الخَرقاء فاســـتقرَّت في جَســـده وأدْمته وآلمته، كم من جُنْحة غرامتها قروش قليلة؛ أنفلتت منه فعـــاش في رعب ووهم مطاردتها له، وهـــو يظنها جُرما عظيما وذنبا لا يغتفر، حياة خَرْقاء ومُهينة، ومخاوف ضالة وأليمة.

يُرْوَى أنَّ هناك حيوانات ضخمة يَسْتأنسها الإنسان ويُسَخِّرها له، لدى الحيوانات جِهاز للإبصار يُضخِّم صورة الإنسان فيراه الحيوان أكبر وأقوى منه.

يعيش الحيوان في ذل للإنســـان تحت هذا الوَهم، ولا يَكون لقوته عملا سِوى خِدمة سيده الإنسان، الذي يراه خلال عدسة مكبرة.

هكذا هي الحيـــاة في معظمها، تُنَغّصها المخـــاوف، والأوهام، والأحلام الطائشة، والمعاناة العاطفية، والضمير المُلتهب دائما.

كيف يَســـتمتع الإنسان بالطعام الشَـــهي وقد دُسَّت فيه جُرعة عالية من البُهارات الشديدة الحرقة، فلا يَمر خلال الفم والمريئ والمعدة إلا على جِسر من نار الألم.

هل مـــنْ يُجْبَر على تنـــاول هذا الطعـــام يقال أنـــه تَمَتَّع بطعام شَهي ولذيذ؟

لهذا أقولها في حَسْم وإحجام: (لا أريد للشباب أن يعود).

* * *

الشاب الوسيم

عندما كنت في منْتَصف الثلاثينيات، جَمعتْني مناسبة مع أصدقاء ومعهم شخصية أزهرية شَهيرة وجليلة في بلدنا، وكان لا يعرفني، وأثناء الجلسة نظر إليَّ فجأة وقال لي: «ما رأيك أيها الشاب الوسيم؟»... فرددت عليه برأيي ثم انتهى اللقاء.

عدت إلى زوجتي ورويت لها ما حدث؛ فضَحِكت كثيرا وطويلا؛ ومن يومِها وهي تَتَنَدَّر بهذا الوصْف كلما أرادت السُخْرية مني.

وأنا على مَشارف الخَمسين؛ قلت لها إنني أرى نَمَشا في ظهر يدي، ما رأيك؟ هل يحتاج الأمر «كريم» أو أذهب إلى الطبيب؟ قالت لي وهي تَضْحك: (لا أيها الشاب الوسيم، هذا ليس له علاج، هذا يسمى عِندنا أعراض الشيخوخة)، ثم أعطتني ظَهرها وانصرفت وهي تُطلق ضحكاتها المُجَلجِلة.

وعلى مشارف الستين لاحظْت أنني كلما نظرت إلى المرآة أسْتغرب نفسي، أجد عيني اليسرى مُنْسَدِلة الجفن، تَعجَّبْت وظننت أنها ظاهرة مرتبطة بالضغط الدَموي، ولكنها تكرَّرت حتى أصبح هذا شكلي الطبيعي.

فسألتها: فقالت وهي تبتسم إبتسامة مفهومة وحَذِرَة؛ (الشيخوخة تدق بابك ثانية أيها الشاب الوسيم)، فأخذت الموضوع باستخفاف، ثم ذهبت لطبيب العيون، أخبرني أنَّ الجِفن يزداد كثافة مع تقدم السن، وأنْ الأمر قد يحتاج جِراحة تجميل، ضحكت وعُدت لبيتي وأنا أقول لنفسي: «راحت عليك» أيها الشاب الوسيم.

وهكذا الدنيا تسوقنا وتعمل في جسدنا، وانفعال الجسد وانطباع آثار الحياة عليه ليس فيه مجاملة ولا يتأخر، ثم مرت الأعوام سريعة.

اليوم كثيرا ما أشعر بتشابه كبير بيني وبين جحا.

كان جحا يَسوق عشرةَ حَمير وهو مُمتطي أحدهم، وعندما يقوم بالعد وهو فوق الحمار؛ يَنسى الحمار الذي تحته فيعدّهم تِسعه، فينزل ثم يقوم بالعد فيجدهم عشرة، وقام بتكرار هذا العمل صعودا ونزولا منْ على الحمار مرات عديدة؛ ولم يهتد إلى سِر هذا الحمار اللعين الذي يَظهر ثم يختفي، وأخيرا قرَّر أنْ يَمشي بجانب الحمير حتى يحتفظ بالحمار الناقص.

في هذه الأيام وخاصة في الصباح بعد الاستيقاظ، أشعر في روحي وكأني من أهل الكهف، ثم أنظر للمرآة فيتأكد لي هذا الظن، وأنا أشاهد سِحنة عجوزة ومسكينة، تثير الشفقة وتَسد النفس، لم تعد المِرآة تريحني بعد اليوم.

يَصعب تَصديق هذه السرعة التي أصبحت فيها (جَد) و(متقاعد) وفي مرحلة الهشاشة الجسدية والصحية.

الغريب أنني عندما لا أنظر إلى المرآة أتعامل نفسيا وبتقمص وكأني في العشرينيات، ثم سرعان ما يَنشب تفاعل في صدري ويَتغلب عليَّ شعور من فَقَدَ تِسعَة حمير؛ وليس حمارا واحدا مثلما ظنَّ جحا، أجلس لأقوم بالعد.. أعد ما مر من عمري.. أعد حميري.

الستينيات- السبعينيات- الثمانينيات - التسعينيات- العشرة الأولى في القرن الواحد والعشرين- العشرة الثانية. وها أنا في بداية العشرينيات من القرن الواحد والعشرين.

يا خبر اسود!.. أيه ده كله!.. كل ده عَدَّى وفات! وأقْتَنِع للحظات بأنني عِشت طويلا وأخذت حقي وزِيادة

ولم يضحك عليَّ الزمان، وأنني أنْفقت بالفعل كل هذه الحمير.

ثم أســـهو .. وأمتطي الحمار لأتجاهل تلك الحِســـبة السخيفة، وأحطّـــم كل المرايا كي أســـتريح وأنســـى، ولكـــن تُطَبْطِب عليَّ فكرة أن العمر ليس بالسِنين، وأقول لنفسي: «وهل للأدباء عند الله غير الجنة! .. ربنا يُوعدنا».

❊ ❊ ❊

الأم

من كثرة ثناء وتفاخر كل فرد بأمِّه وكأنَّها قِدِّيسة من السماء اختصه الله بها وحده، وإدعائنا أنَّ أمّنا هي أعظم أمرأة في العالم منذ بدء الخَلِيقة، كنت دوما أكرِّر كلمة اخترعتها لأجعل من هذا الزَعْم أقرب إلى الدِقَّة، فأقول: «أمك هي أعظم أم في البيت وليس في الدنيا، فالأرض مُمتلئة وخِصْبة بالأمهات.»

عندما كنت صبيا كان نومي مقدَّسا لمن في البيت، أي صوت أو ضوء يتسبب في أنْ يَنطلق مني صراخ صاخب وأنا أعْصر جفني حتى لا يَتسرب منه إلى عيني ضَوء، لو حدث هذا فسوف أستيقظ نَكِدا وأظل استجدي النوم أملا أنْ يعاودني ثانية.

لم يكن هذا حالي فقط؛ بل اخوتي جميعا، وهكذا كل منْ في البيت الا واحدة، أمي، تظل تدير ساقية المنزل وتَرعانا طوال اليوم دون كَلل أو شكوى، وما أصعب المراهقين والمراهقات، الطَلبات لا تنقطع والمِزاج لا يثبت على حال، والعَشَم في الأم بلا حدود، ينتهي اليوم وقد تعب جسدها واستهلكت كل طاقتها، ثم تأوي إلى فِراشها شِبه جُثة هامدة وسرعان ما تَغرق في نوم عميق.

وتَصاعُد أنفاسِـــها هو الدليل الوحيد على أنهـــا حَيَّة ولم تَهلك من كثرة الشـــغل، بعد وقت قليل أكون أحد قُســـاة ومُتبلدي القلوب الذين يَدخلوا غُرفتهـــا، أضيئ المصباح ثم أبْحث عنْ شيء خاص بي في الغرفة، عندمـــا لا أجد حاجتي؛ أنادي أمي أســـألها، تَفْتح عينها ولا تكاد تَرى ثم تجيـــب، ألتقط حاجتي من حيث وصفت أمي ثم أنصرف،

قد أطفئ المصباح أو أنســـى، قد أغلق الباب أو أهمله مفتوحا، لا يهم، أعلم أنَّ أمي يَسْتوي عندها أي حال فهي الأم الفولاذية، خُصوصيات أمي وراحتها وغُرفتها على المَشَـــاع بيننا مُنْتَهك، -ربما تلـــك هي طبيعة فيها- هكذا أقول لنفسي مُبَرِّرا جَريمتي لأغطي على شُـــعوري بالتأنيب من أنانيتي وبَلادة حِسِّي، بعد لحظات يدخل أخي ربما لا يَبْحث عن شيء، يناديها؛ أمي أمي، تفتح عيونا زجاجية ثم تُوجِّه نَظرةً سَكْرى متسائلة، فيقول لها:

أريد ان توقظيني غدا في السادســـة فعنـــدي مُحاضرات مبُكِّرة ولا أريـــد أن تفوتنـــي، تقوم الأم بتســـجيل تلـــك التعليمات في ذاكرتهـــا التـــي لا تَنـــام، ثـــم لا تملـــك طاقة كي تســـأله: «لماذا لم يُخْبرها بتلك المعلومة طوال النهار وهي مســـتيقظة!» ، ترمي رأسها علي الوسادة وتعود لنَومها المُتقَطَّع، ثم تدخل أختي

بعد فترة تتسحب، تهزّ أمها، تهمس إليها بأسئلة البنات، تجيبها ثم تعود لنومها .

هذه لقطـــة من لقطـــات الأم المصرية المُسْـــتباحة من أولادها والمُسْتعبدة لهم عن طيب خاطر.

حفـــظ الله كل أم لا تزال تمارس واجبها المقدس ... ورحم الله كل أم رحلت.

❊ ❊ ❊

البرزخ

زمان... كانت المسافة بين الأمي والمتعلم واضحة وعازلة، كان الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب .. وكان المتعلم الذي يفك الخط ويقرأ الجورنال، يستمع الأمي للمتعلم في خُشوع واحترام ويُقدِّر نَصيحته ويَنْقاد لرأيه، وكان من المستحيل أنْ ينقلب الميزان أو تنعكس العلاقة.

اليوم؛ أصبح الكل يفك الخط، وقَطَع أغلب الناس مَسافات متتالية على قضبان التعليم الرسمي، ورغم تفاوت مُسمَّيات ودرجات الشهادات والتخصصات إلا أن الفروقات والعوازل بينهم سالت، للكل رأي وللكل مَعرفة وللكل خَيار واختيار وللكل ثِقة قوية في كل ما ينتجه عقله، وبهذا أصبح الحوار والإقناع والاقتناع بعيداً وعسيراً وأقرب للمستحيل.

زمان... كانت المسافة بين الطيب والشرير واضحة وفاصلة ويَستحيل امتزاجهما، الخير معروف وممدوح ومَرغوب .. الشر مُنْكر ومَذْموم ومُتَنزه عنه، الحرامي يعترف بذنبه وضَعفه ويقول يا رب تُوبة، والشريف يُقَبِّل يده بطنا وظهرا وتُطَرْقِع شَفتاه وهو يقول: «اللهم أدِمْها نعمة».

اليـــوم... أهل الصـــلاح والنزاهة والخير مُحتَقَـــرون ومُهانون ومُلامـــون ومُتَّهمون؛ فلم يعـــد لمؤهلاتهم هَيبة ولا ســـوق، ولم يتبـــق للأخلاق جَلال، وأصبحت نزاهتهـــم (خِيْبة بالوِيبة ودليـــل عَجْز وفَشـــل)، وأهل الفســـاد والشر في ثيـــاب أنيقة وسيارات فارهة ورَغد عيش، مَحسودون ومُهابون وفيهم الطمع، بل وربما القدوة، لم يعودوا يتجمَّلون .. لأن القيم ســـالت، ولم يعد المعروف معروفا والمنكر منكرا.

أصبحـــت القيمتان مثل الســـلاطة، معروف بتحبيشـــات من المُنكر، ومُنكر بصبغات من المعـــروف، ومنكر بالمعروف بكل نِســـب ومقادير الطبيخ وبحســـب كل طبخة وبحسب ما يأمر الزبون.. والزبون دائما على حق.

اليـــوم... أزيل الحائـــط العازل بين الخير والـــشر، وأصبح لأهل الخير والشر برزخ مشـــترك يلتقيان فيه، وحـــين يجتمع في الملعب الخير والشر تحتار في الفصل والتمييز بينهما، ففي البرزخ .. يصلي الفاسد ويدخل المسجد ويعتمر ويحج ويصوم الإثنين والخميس.

وفي البرزخ .. الصالح يلين ويُداهن وينافق ويشـــارك الفاسد ويخاطبـــه بحضرتك وســـيادتك، لأن الصالح هُـــزِم وأصيب بالضربـــات القاضية عبر العقـــود الماضية، وشـــعر بالوحدة واغتالته الإهانة ولم يعد يطمع إلاّ في البقاء حيا.

❊ ❊ ❊

وعجبي على الناقد المحتار

أتذكـــر في الثمانينيات من القـــرن العشرين، تمثيليـــة إذاعية بعنوان «عجبي» بطولة (حسن عابدين وخيرية أحمد)؛ تنتقد غَزَارة القضايا المرفوعة مـــن النقابات ضد الأعمال الســـينمائية، ويدور حوار بين المخرج والمؤلف عن الشخص الشرير والفاسد في الفيلم؛

- طبيب شرير!.. لا بلاش... سوف تَهب نقابة الأطباء برفع قضية تشهير.
- مهندس فاســـد!.. مـــا ينفعش... ســـوف تســـارع نقابة المهندسين برفع قضية تشهير.
- محامي ألعوبان! هههههههههه هو احنا مجانين، دول يجيبوا لنا إعدام.
- حِرَفي.. ساعي بريد .. عامل نظافة .. موظف الخ

بلاااااش.

مش عايزين مشاكل، فلكل مِهنة نقابتها الغيورة والمشاكِسة.

وفي النهاية يُنتج الفيلم والشخصية الشريرة بلا اسم ولا مكان ولا ألف لام تعريف.

أما الذين يمارسون النقد اليوم في أي مجال؛ فلهم معاناتهم الأشد، فالفيلم يَستغرق عاما وربما أعوام كي يتم إنتاجه، بينما الناقد والمفكر يكتب مقال يومي أو أسبوعي، فكيف يكتب وينقد ويقترح تغييرا بلا وجوه وملامح ووظائف وشُخوص!، الأولوية في الحَذَر من السياسة وما يَمَس الحُكم، إحترم نفسك ولا تتحدث في السياسة وإلا!، أما الكلام في الدين ومخاطبة شعبنا المتدين من المسلمين والمسيحيين؛ ياويلك ويا سواد ليلك، هناك حَصانة لعشرات الآلاف من الشخصيات التاريخية والمعاصرة؛ مستحيل أن تُخطئ أو تَضْعف، فهي العقل والحكمة والضمير على طول الخط، هناك حَصانة لملايين الأحداث التاريخية والمعاصرة؛ التي لا بد أن تكون صائبة وخالصة النية وسليمة الضمير وعبْقرية، هناك حصانة للعقائد (أو ما تم ضَمّه للعقائد) والفقهيات والتاريخيات والطائفيات، أما الكلام عن التاريخ فإياك أن تقترب من الخلافة والدول والزعامات وأفعالهم وأقوالهم، أما الكلام عن الفلسفة والفلاسفة والغرب فهو ضلال وافتتان بالخواجة والصَليبي، أما التشدق بمواويل التسامح الديني والمواطنة والدولة القُطْرية فهو شَقْشَقة المُسْتسلم والخانِع.

كل هذا عبــارة عن رياح عكســية أو مَطَبَّات حادة وشــاقة، فالطبيــب والمحامي والمهندس وكل متخصص لا يُســأل عن قــراره، وتُحترم كلمته ودراســته، أما الناقد اليوم فمســكين؛ **يبيع المية في حارة السقّايين**

* * *

الحَوَل العاطفي

فتاة جميلة ومثقفة هي ابنة المدينة، تتــزوج ريفيا.... أقل تعليما وتهذيبا... تُنْجِب منه فتاة جميلة مثل أمها.

تدور الأحداث حول التَناقضات والمفارقات بين الزوجين؛ بين رومانسيتها وثقافتها وتهذيبها، وبين خُشونته وأميّته وجلافته.

زوجها شَهم ومكافح... يُحبها بأسلوبه القروي، يُحبها بالعطاء والتَحمّل والكفاح، لكن كيف لابنة المدينة أن تتحمل الروائح نتاج الفِلاحة وتربية الماشية.

تعيش معه وهي تَســد أنفها، وتســد أيضا مَســام عواطفها، وتحيا في خيالها الحــالم البعيد، تقابلها إغــراءات كثيرة وقوية؛ أنْ تتملص مــن تلك الحياة بــأن تَفِر للمدينــة بصحبة المَدني الذي يُغويهــا ويَفهمها وهو ابــن بيئتها. لكنهــا في النهاية... تتغلب على الضَعف.

تتخلى عــن أحلامها من أجل ابنتها وتلغي خطة الهرب في آخر لحظة، تمر الســنون ثم تتكرر المأســاة أمامها حين تكبر الابنة، وتحب ابنتها أحد القرويين، ابنتها التي نالت عِناية خاصة منها وادّخرتها لحلمها المَوْءود، فهي تشــبهها في كل شيء، تنصحها الأم ألا تفعل ولا تكرر المأساة.

تقــول لها الإبنة: يا أمي لك قصتــك ولي قصتي، أنت لم تتقبلي أبي ولا حياته منذ البداية، عشــت عــلى مَضَض....وتلك هي المشــكلة، لم تفتحي قلبك وتتعرفي على ما لدى أبي من مميزات ومــا في حياة الريف من سِــحْر وجمال، أمَّا أنــا فأحبه وأحب قريتــي، فأنا ابنة القريــة، وإنْ كان هناك فروقــات بيني وبينه فسوف نتعامل معها معا وسوف يَصْهرنا الحب.

تزوجت البنت وعاشت في سعادة.

هذه هي غالب حياتنا وحياة معظم البشر، نُبتلى بالحَوَل العاطفي، نَشــتاق إلى ماليس بأيدينا أو بجانبنــا، لا نتعرف على الحب حين يقترب ويرفرف، ولا نميِّز من يستحق الحب، وإن أحببنا لا نعرف أدوات ولغات الحب، نحلم بالحب... ثم نطعن الأحباب.

نريد من يضمّنا لصدره.... فإن فعــل.... ركلناه بأقدامنا بينما هــو آمن، نريد أن نمدح فنذم، نريد أن نعتذر فنهين، نريد الخير فينطلق منا الشر.

نحيــا حياة الحَوَل حين تَضل المشــاعر وتســيطر الأوهام على الخيــال، نحلم بالمفقود ونتمرد على الموجود، وكما قال الحكيم: ربــما الأزهار التي تحلــم بها بين النجوم، هــي التي تنمو تحت أقدامك وأنت لا تشعر.

❊ ❊ ❊

عندما قال ماركس «لست ماركسيًا»

الفكرة هي وقود حركة الشعوب على مدار التاريخ ، نادرًا ما كانت الفكرة الصحيحة هي العربة المنطلقة بالإنسان للأمام، بل كثيرًا ما كانت الفكرة الطائشة والضالة هي العربة التي تدهسه فيكون ضحيتها.

فالأفكار تحتاج حِرصا شديدا وامتحانات متوالية لتنضج ويُتأكد من صحتها، وأن يتزامن فيها عمليات الممارسة والنقد معا، وإلا تشوَّهت الفكرة وارْتَدَت ثياب التقديس المانع لأي مراجعة أو نقد.

أعجبني بروفيسور كبير في جامعة هارفرد، أثناء شرحه لفلسفة وشخصية (كارل ماركس) كأحد أهم فلاسفة علم الإجتماع... قال:

الملاحظ أن كارل ماركس كان شديد المُرونة وهو يَبتكر نظريته، وظل إلى آخر حياته يُطَوِّر فيها ويَستجيب لأي معلومة تُضاف إليها أو تعدِّل منها، لكن أتباعه من الماركسيين كانوا يَعتبرون أنّ فلسفته المادية والجَدَلية التاريخية قد أنهت تفسير العالم.... ولم يبق سوى الاسترشاد بها لتغييره بأدوات ووسائل الثورة.

أنكر (كارل ماركس) على بعض مناصريه الفرنسيين المتطرفين وقال كلمته الشهيرة: « أنا أعرف شيئا واحدا فقط، أنني لست ماركسيا».

من هذه القصة نلحظ أنَّ الأفكار في بدايتها، تكون منْ مُبدعها مَرِنة وعارية من القُدْسية، ويُضاف ويُطرح منها بترحيب من المؤسِّس للفكرة، ثم يتلقَّفها المؤيدون للفكرة.... فتتحول إلى دين صارم، فالناس يبحثون عن اليقين وليس الحقيقة، وبهذا يزيد عدد الكتب المقدسة كتابا، وأصبح كتاب «رأس المال» مقدَّسا عند الماركسيين.

بعد ذلك كلنا يعلم ما حدث في كوكب الأرض؛ حين جاء «لينين وستالين وماوتسي تونج»، أخذوا الكتاب المقدس لماركس وأذاقوا شُعوبهم الوَيْلات، واخترقت الشيوعية بلاد العالم زمنا قصيرا في عمر الدنيا، لكنه كان دمويا لأقصى درجة، فمحاولة تغيير فِطرة الإنسان لعبة خطرة، ثم فشلت الشيوعية تَطبيقا وخَفَّ ذِكرُها في الدنيا اليوم.

هناك ملاحظة أخرى تتعلق بتلك التجربة الماركسية؛ قال (كارل ماركس) قولته الشهيرة «الدين أفيون الشعوب».

قالها عندما عانت الشــعوب من التحالــف المَتين والشرير بين القيصر والكنيسة ضد شعوبهم، الدين كان غطاء للفساد..... فرفض ماركس تماما نَموذج اســتخدام الدين في تعبيد الناس لمصالح طبقة حكام ورجال دين فاسدين.

دعونا نتخيل الوضع لو كان غير ذلك؛ أنْ تكون الكنيســة هي بيت الشعب، ترفض الفساد وتُناصر مطالب الشعب العادلة، في هذه الحالة سوف نجد تغييرا جذريا في أطروحات ماركس، كان سيجعل الدين عاملا قويا في تطبيق نظريته؛ ويصبح الدين أكسير الشعوب وليس أفيون الشعوب.

الأفكار البشرية من صنع الإنســان، والعقل آلة وهبنا الله إياها وهي أداة الاختبار، فمن عطلها أو أســاء اســتخدامها أو منح نتاجها القداسة؛

فَسد وأفسد.

❊ ❊ ❊

الفَشْخرة

أتذكر في منتصف الشباب أنْ جمعتني مناسبة مع دستة من الزملاء والأصدقاء، تطرَّق الحديث إلى ذِكر الزوجة وما يجب أنْ تكون عليه شخصية الزوج في منزله.

وانفتحت شهِّية الجميع للكلام، تسابق كل منهم في الحَكي عنْ بطولاته وحِكمته وحَزْمه في بيته.

كيف يتعامل مع امرأته، ما هي التَنبيهات التي قام بتدريسها للزوجة كي لا تَتعدى حدودها، متى يُطْلق «النَظرة والكلمة والبوكس والشَلّوت»، كيف يتحكم في علاقتها بأهلها ويُلقّنها كيف لا تَهتك أسرار بيتها.

ودارت منافَسة في حَكي الأحاديث والقصص والبطولات الذكورية، الجميع يحكي والجميع يُظهر تَصديقه بالكلمة والنظرة، وكلهم يجاملون بعضهم بعلامات التصديق والموافقة.

لم أتحدث وظللت أستمع وأدور بعيني ورأسي بينهم وهم يتكلمون، وكلما نظرت واستمعت لأحدهم دار في خيالي شريط الذكريات عما أعرفه عن حياته الأسرية الحقيقية، والتي أفضى بها إليَّ قديما عبر جلسات اعتراف وبَوْح، فأكاد أقسم أنَّ أغلبهم كاذبون ومُتفاخِرون ومساكين في بيوتهم.

وأقصد بمســـاكين؛ أنهم شـــديدي الحيرة في كيفية قيادة الحياة الأسرية ســـواء مع زوجاتهم أو أبنائهم، حتى اقتربتُ من لحظة لمْ احتمـــل فيها المزيد، فالتقطت الكلمة من آخر المتكلمين وهو يقول : « إنَّ زوجتي لا تناديني إلا (يا سي فلان) ، ودوما تقول لي أنت سيدي وتاج رأسي.»

وهنا تغلبت وسوســـة الشـــيطان عليَّ ولم أملك إلا أن أســـتلم الميكروفون،

قلت: «يا نهار أســـود! ده أنا مراتي عندما تناديني تقول تعالى يا مدَهْول وروح يا مدهول!»

وساد صمت رهيب!! وخاصة أنهم لم يعتادوا مني الاستظراف، لم أسمع ضَحكا ولا تَعليقا ولا حتى سبابا، فقط رأيت العيون الشديدة الاتساع تنظر إلي وتكاد تبتلعني، ولولا ستر ربنا وبقية هَيبة وحِفظ للعِشرة لأكلت عَلقةً ســـاخنة، ليس لأنني أهنت نفـــسي علانية بهذا التصريـــح، ولكن لأننـــي أهنتهم بانفلات لســـاني ونزعت غطاء المسرحية التي كانوا يمثلونها، فقد كانت مسرحية بعنوان: «للرجال فقط».

❊ ❊ ❊

متى يثمر الإيمان؟

ترى الموظف الجديد في بداية العمل مُرتبكا ومترددا ومُحاسِبا ومُترسا في كل خطوة، هذا لأنه يَجهل المؤسسة والموظفين وتفاصيل الوظيفة وشخصية رؤسائه، يجب عليه أنْ يبدأ بداية صحيحة ورشيدة، وأن يظل حريصا على أنْ يفهم وهو يمارس، وخطوة خطوة يقترب للهدف من العمل ويتَّحد هدفُه مع أهداف الشركة.

في البداية يخشى من أن يُلام أو يُعاقَب، ومع الزمن يستطيع تقدير ما هو المتساهَل فيه والمتشَدّد فيه، ما هو الممتاز والجيد والضعيف والمرفوض، يعرف الحدود والشُبهات والموانع والعوائق، يعرف رئيسه ونفسيته وطِباعه، بمرور الايام يترقَّى وظيفيا ويَرقى ليصبح مثل الأكابر بِفَهمه وعِلمه وبراعته.

ولكن إنْ ظل في درجته الأولى طوال حياته، أو إن ترقَّي ترقيتين فقط من عشرة وثَبت عليها، يصبح مُتوترا متشددا مترددا عصبيا ذو نفسية ضيقة فيُجهد من حوله ويُجهد نفسه.

كذلك المتديِّن في بداياته، يناله كل حالات ارتباك البدايات، ومع السير إلى الله يفهم ويتذوق ويَعي ويؤمن ويُحسن، ويظل

مترقيـــا في إيمانه طوال رحلة الســـفر إلى الله، فيكون مَصدر كل خير للناس ولنفسه.

أما من يقعد مبكرا ويتشبَّث بالمفاهيم الأولى والتجارب الأولى الســـاذجة، يصبح جافا ومتقلبا وغليظا طـــوال تجربته الدينيه لأنـــه لم يَخُض الدين كتجربة حقيقية مكتملة، فلا يمارس الخطو والصعود بمرونة وخِفة.

فيَعْلق في المظاهـــر والنُصوص والمفاهيـــم المتوارثة والراكدة، ويجهد نفســـه وروحه وجســـده .. ويُجهد الناس معه ويُحيّرهم ويُربكهم وربـــما يُنفّرهم، مثل من يقعـــد بتجربته الدينية ليبيع الكتب والمِسك والسِـــبحة أمام المسجد بقية عمره، مرتديا زِي وعمامة ومِطلق لحيتـــه، هذا هو الايمان القاعـــد مبكرا في أول الطريق، والله لا يحب القعود

التدين الشَكلاني مثل الرُقية الزائفة الخائِبة فلا يتجدد ولا ينمو ولا يثمـــر ويظل كما هو، والجهاز الجديد مع الســـنوات يصبح قديما لانه مادي، ولكن التجربة الايمانية تثمر. ونحن أمة أقرأ ... أمة نون وما يسطرون... أمة عَلّم بالقلم.

❊ ❊ ❊

العزف تحت التهديد

- كيف أعزف على قيثارتي وأنا مشغول بالدفاع عنها؟

كل شـــخص له فيثارته «الهَوِيَّة. الهوايـــة. الدين.... وفيثارات أخـــرى متنوعة»، حين تُهَدَّد الفيثارة يتخلل المرء نفســـية تَجعله يلجأ دائما للوسائل الاحتجاجية، ويهمل أو يستهين بالوسائل الحججية، والفرق بينهما كبير.

وهذه مشكلة كل طوائف العرب.. الشعور بالتهديد، تقمّص نفسيّة المُدافع عن الهّوِيّة التي تتعرض لخطر الفناء، وبهذا يصبح الصراع وكأنه من أجل البقاء ودفاعا عن المصير المهدَّد.

في القـــرآن الكريـــم: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ (محمد – 38)

لم يقل إن تتولوا يَضيع الدين أو يُجْرَح الدين أو يُنال من الدين، بل ســـيأتي غيركم، الذين هـــم بإيمان مختلـــف وثَبات مختلف وعقلية مختلفة، وهذه الآية تُعَرّفنـــا أن لا خَطر على الدين مهما كان الاعتداء وأنَّ الدين يدافع عن نفسه.

الخَطر هو مشـــاعر الخَطر، فالأب الـــذي يُبالغ في الخوف على بناته ويستســـلم لمشـــاعر خَوف انحرافهم أو وقوعهم ضَحية الاعتداء؛ يدفعه هذا الخوف إلى إشـــعار بناته بالطوارئ طوال الوقت، وهذه المشـــاعر غالبا تؤدي لعكس ما كان يريده، وربما تدفعهم لما يَحذره ويخشـــاه، مشـــكلة العـــرب بكافة درجاتهم العلمية والثقافية، أنهم مغمورون بمشـــاعر التهديد في الهوية، متربّصون ومتحفزون ومتوجّســـون وحَذرون، وهذه هي أول المشاعر السيئة التي لا بد أن ننتبه لها.

من يقرأ القرآن يعزف على قيثارته بســـلام، القرآن حين يخاطب الرســـول والمؤمنين يبث في نفســـيتهم مشـــاعر السلام وليس الخطر، لست عليهم بحفيظ . بمسيطر. بوكيل. إنما أنت منذر.

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس - 99)

الفخ الذي يُنكّد علينا إيماننا وعلاقاتنـــا أننا متوتّرون، وإيماننا ببضاعتنا من الدين قليل، لـــو كنَّا مؤمنين حقا لما تصرَّفنا جميعا اســـتجابة لخيالنا الضعيف، وكأن الله تعـــالى يخوض انتخابات في الأرض ونحـــن مناديـــب الدعاية ونخـــوض تلك المعركة الانتخابية نيابة عنه، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

الله تعالى لا يخوض معركة ولا انتخابات مع الناس، إيمان الناس وكفرهم وعبادتهم لا يصل إلى الله منها نَفع ولا ضر، أنت تؤمن لنفسك وتنفع نفسك وتضر نفسك.

اهــدأ وانزع التوتر.. اعزل نفســك شــعوريا عن كل ضعفاء اليقين والإيمان، دعهم يتعاملون وكأنهم في ساحة قتال صنعها خيالهم، واعزف أنت على فيثارتك.

الحقيقــة هي أنّك في مــسرح الحياة وفي يــدك الفيثارة وعليك العزف، فماذا ســتقدم للناس في معزوفة الحيــاة قبل أن تغادر خشبة المسرح؟

هل ستغادر خشبة المسرح بعزف نغمة نَشَاز مثلهم؟

❊ ❊ ❊

زيارة للجنة والنار

أحب الدكتور «مصطفى محمود» كثيرا، عندما يتكلم أو يكتب أشعر وكأنَّه مُلهَم، يكتب بِمِدَاد الروح والعبودية والإخلاص، تحتاج كلماتُه رغم بساطتها لفَهْم عميق، وكأنها ذات طَبقات متراكبة، ولهذا أرى أن له تجربة فريدة مع العبودية لله.

في شبابي قرأت له مسرحية «زيارة للجنة والنار» وفيها تَخَيَّلَ أبطالها في جهنم وأجْرى حوارا وخَلَقَ مشاهد وتَخَيَّلَ حياةً في جَهنم.

ما أدهشني وقتها وأتفَهَّمه ويُعجبني اليوم أنه؛ جعل أبطال المسرحية فقط هم الطُغاة الذين أنْهكوا الإنسانية وكان ضَحاياهم بالآلاف والملايين. وأغلبهم حكام شعوب وقادة الأفكار القاتلة، «التي هي أدوات الطغاة»، مِنْ أقحموا شُعوبهم في حروب بعد أن يقولوا: «قرَّرْت»، الزعماء المتألهون الذين عَبَّدوا الشعوب لهم.

حَشَد «مصطفى محمود» في النار مع إبليس كل طغاة الحروب، حتى أحزنني أنَّه وضع معهم «كارل ماركس، لأني أرى في ماركس جانبا إنسانيا عميقا، وألوم من طَبَّقَ أفكاره منَ الطغاة بما لا يخطر ببال ماركس نفسه.

الفكـــرة التي أعجبتني أنَّه جعل جَهَنـــم لعظماء الطغاة، الملفت أيضـــا أنَّه جعل في الجنـــة حياة وكلام وشُـــعور، وهذا بالفعل موجود في القـــرآن الكريم، ففي النـــار يتكلمون ويتلاومون، وهناك أحاديث تسربت تتحدث عنْ أنّ الله تعالى يُغيّر تكوينهم بحيث يصلحوا لســـكن النار، وهي حياة لا نســـتطيع فهمها ولا تخطر على بـــال، ولكن اليقين أنَّ الله أرحم الراحمين ورحمته وَسِعَت كل شيء ووسِعَتْ من في النار أيضا.

وكـــما كان في بلدتنا عندما يُبتلى أحـــد أقربائنا العجائز بالمرض ويقول: «ســـوف أموت»، فيرد عليه حَبِيب له مازِحا بالقول: «هو الموت بِيْرَمْرَمْ»... ونضحك.

فكذلـــك أراد «مصطفي محمـــود» أنْ يقول لنـــا أنَّ؛ «النار لا تُرَمْرِمْ»، وهذا يُذَكِّرني بمشـــهد في مسرحية «حُجرة المعيشـــة» تأليف الكاتـــب الإنجليزي: جراهام جريين، حين يقول الخال القس للبنت: «الجحيم للعظماء»، ويقصد من ارتكبوا إثما عظيما أضرَّ بالبشرية.

❊ ❊ ❊

تاريخ بالسكر

سـأل رئيس تونـس «بورقيبة» الزعيـم الليبـي «القذافي»: «لماذا لا تُعَلِّم شعبك؟»

قال القذافي: «لو علمتهم سوف يَثورون علي!»

قال بورقيبة: أنْ يثور عليك شـعب مُتعلـم؛ خير من أنْ يثور عليك شعب جاهل»!

قد يتسـاءل أحدهم فيقول: نحن متعلمون ومعنا شـهادات رفيعة ومنها الدكتوراه، فلماذا تذكر هذا الحوار؟

في رأيي: أنَّ الاختبار الأخير والحاسم الذي يُبَيِّن المتعلم الحقيقي من المتعلم بشهادة؛ هو اختبار (نظَّارة؛ المُحَلَى بالسكر)، لو كان معك أعلى الشـهادات التي استغرقت عمرك في نيلها؛ ثم ترى فقط اللونين الأبيض والأسود؛ فتعليمك يُكَرِّس الغيبوبة عن الزمان والمكان والواقع والحاضر والمستقبل.

إنْ كان ما لديك كله الأبيض وما لدى الآخرين كله الأسـود؛ لن تنجـح في اختبـار النَظر الـذي يجعلك تَنـال الاعتراف بشهادتك العلمية.

عندمـــا أتذكر تجربـــة ماليزيا يُدهشـــني أنّ زعـــماء ماليزيا بعد الإستقلال كانوا مُتَساندين، كل زعيم يأتي ليُكمل انجاز الذي قبله؛ فكانت النتيجـــة ماليزيا اليوم، نفس الملاحظة وجدتها في الصين وروسيا والولايات المتحدة الامريكية .. الخ.

نحن نحرث في الماء منذ الاستقلال!، لأنَّنا ما زلنا نَرى الأبيض والأســـود فقط، فالحدث الذي يجلب العار والذل والوكســـة؛ لأجل خاطر شخص أو سُمعة حكومة أو مَكانة طائفة أو دين؛ يتحول لكرامة وعِزة ونجاح لأجل عيونهم.

في حـــرب 1956، تحطَّم في مصر؛ الأفـــرادا والمعدات والبِنية التحتية والمجتمعية، كانت الغلطة البسيطة؛ هي توقع أنَّ القوى العظمى ســـوف تتدخل لتمنع الحرب، فتدخلت ولكن بعد أنْ تحطَّم كل شيء، أصبح يوم الهزيمة احتفالا باسم «عيد النصر»، وأصبح يوم أجازة رســـمية، وعندما يُرْتَـــدَى ثوبُ العزة فوق ثوبِ الهزيمة، تتكرر المأساة وتكون أفدح.

وكان نفس الســـيناريو في اليمـــن وفي هزيمـــة يونيو1967، عندما فَرضت أمريكا والاتحاد الســـوفيتي على مصر أنْ تتلقى الضربة الأولى، فكانت الضربة القاضية! هل ترون الحِكمة من هذه اللقطات التاريخية؟

بدلا من المراجعة، وبدلا من محاسبة التهور والمغامرة بالبلد؛ هلل الجميع بالنصر، وأصبحت التجربة المريرة كلها في خاطرنا؛ كعكة بسكر.

❊ ❊ ❊

تعدد الزوجات

تأملت في هذين الحديثين؛

الحديث الأول: يخطب النبي صلى الله عليه وسلم في الناس ويقول: (إِنَّ فَاطِمَةَ مِنِّي، وَأَنَا أَتَخَوَّفُ أَنْ تُفْتَنَ فِي دِينِهَا)، ثُمَّ ذَكَرَ صِهْرًا لَهُ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، فَأَثْنَى عَلَيْهِ فِي مُصَاهَرَتِهِ إِيَّاهُ، قَالَ: (حَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي وَوَعَدَنِي فَوَفَى لِي، وَإِنِّي لَسْتُ أُحَرِّمُ حَلاَلًا، وَلاَ أُحِلُّ حَرَامًا، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لاَ تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِنْتُ عَدُوِّ اللَّهِ أَبَدًا)

في هذا الحديث يرفض النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوج علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) زوجة أخرى على فاطمة (رضي الله عنهما)

في الحديث الثاني؛ قال صلى الله عليه وسلم: إِنَّما أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عليه الحَدَّ، وايْمُ اللَّهِ لو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا.

في هذا الحديث؛ يعلن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّ فاطمة (رضي الله عنها) مثل الناس.

هــذان الحديثــان يتماشــيان في رأيي مــع المســطرة القرآنية ولا يتناقضان ولا يتعارضان، ولكني لا أســير مع من قال بأنَّ رفْض الزواج الثــاني كان خُصوصية للرســول، وهل عندما نزلت ســور الطلاق والتحريم والنور والأحــزاب في القرآن الكريم؛ وتحدثوا عن نســاء وبيت النبي؛ هــل قال أحد أنَّ ما فيهم خصوصية للرسول صلى الله عليه وسلم!

الرســول يؤكد أنَّ التعدد يضر بابنته ويَفتنها في دينها، فهل التعدد يَفتن في الدين ابنة الرســول فقط أم كل النســاء؟، الحديث رائع وواضح ويلقي الضوء على مشــهد من السيرة نحن في حاجة إليه، فهناك تطورات غريبة أقحمت في النفسية المسلمة وتَختفي وراءها الذكورية، من هذه التطورات اليقين الذي يَرسخ في النفوس؛ بأنَّ التعدد هو مزيد تدين وتَطبيق للســنة النبوية وللأمر الإلهي وتَعَبُّد بتنفيذ الأوامر، وتنتشر الصور التي تظهر فيها أربعة فتيات ساذجات يُطالبن بالتعدد لإنقاذ الجنس الناعم، وكأن الجنس الخشن يرتع في الفائض الغامر من عدد النساء في الأرض، وهذه النفسية الذكورية لا تقتصر على المسلمين؛ بل هي ديدن وسبيل الناس في كل الأديان منذ بدء الخليقة.

تعدد الزوجات مثل الطلاق.. رخصة لضرورة ... وليس سنَّة نبوية.

❊ ❊ ❊

المَذَلَّة في ميزان الدين

في عصر الدولة المَمْلوكية كانت مصر بوابة التجارة إلى أوروبا، هذا الحظ الجغرافي تَسبَّب في فترة ازدهار لمصر، كان للمماليك الحُرية المُطلقة في فرض رُسوم على البضائع، فأثار هذا حفيظة التُجار الغربيين، علاوة على ذلك؛ انتشر في عهد المماليك التزوير في العُملة، وذلك بتقليل قدر الذهب فيها.

هذا الوضع الذي تحكَّمت به مصر في التجارة الأوربية، أثار البابا في الفاتيكان، فما كان منه إلا أنْ أصدر فتوى بأنَّ البحث عن طريق بديل للتجارة هو واجب الجميع وعليهم أن يَنْفِروا لاكتشافه، للتخلص من تحكم المسلمين في التجارة الغربية.

تلقى المُلوك هذا النداء، ثم كان النشاط المَحموم في كل أوربا، والذي انتهى إلى اكتشاف رأس الرجاء الصالح، وتَبِعَه اكتشاف الأمريكتين، واستغنى الغرب عن مصر والمسلمين، وأضافوا إلى المسيحية ثلاث قارات جديدة، (أمريكا الشمالية والجنوبية واستراليا)، وتوقفت الثروة التي كانت سببا في رفاهية مصر المملوكية واستقرارها وتفوقها الحضاري، تغير حال المصريين وافتقروا بعد أنْ لجأ المماليك إلى فرض الضرائب على الشعب

لتعويض رفاهيتهم التي حُرِموا منها، فكان عصر المماليك الثاني الذي هو بداية الانحدار.

في هـــذا المثال كان للبابا دور إيجابي وحاســـم في معالجة الأمور التى تَمَس حياة المســـيحيين، فكما كانت الكنيســـة الكاثوليكية هي التي أضرَّت بأوربـــا باضطهادها للعلماء والعلم، حتى ثار عليها الناس، فهي أيضا التي تسببت في نهضة أوربا من جانب آخر، ويرجع السبب إلى أنها كانت سلطة عُليا، فكانت حُرة في خَطاياها وحَسَناتها.

لا يوجد أســـوأ مـــن حال المســـلمين والعرب اليـــوم في كافة المجالات، وهذا الحال الذي وصلنـــا إليه لم يُثِر حفيظة علماءنا إلى اليـــوم، رغم المكانة الروحية العالية للدين في قلوب الناس، إلا أنَّ العلـــماء صَبّوا معظم الوصايا والانتبـــاه في وعاء قضايا هامشـــية وظاهرية وبعيدة كل البعد عـــن معالجة هذا التخلف والخَطر الذي أنغمسنا فيه.

نحن للأســـف عرايا وعُزَّل تماما، فقط ننتظر القَدَر، فما على أي دولة متقدمة إلا أنْ تتجه بنظرها إلينا، فقط مجرد النِيَّة، ســـوف يتلو ذلك وضعا لا خيار لنا فيه، ســـوف نكـــون مثل الدجاج المصفوف على ســـير المذبحـــة، أي مقاومة منا ســـوف تكون

عديمة الجدوى، فالأسلحة الحديثة تهلك البلاد عن بعد، بل هناك أسلحة نظيفة تميت البشر وتُبقي على كل شيء كما هو، ولا تجدى مع تلك الأسلحة روح البطولة أو الرغبة في الشهادة.

أين علماء الدين الذين يُفتون بأن التخلف الذي نحن فيه هو الكفر بعينه؟

ألم يقل الشافعي: «همتي همَّةُ الملوكِ ونفسي نَفْسُ حُرٍّ تَرَى المَذَلَّةَ كُفْرَا»

* * *

القرآن الكريم

يَسرِي بين عَلماني اليوم كلمة يسيرة على ألسنتهم؛ ولكنها عسيرة على أن يمررها عقلي، يقولون أنَّ القرآن والإسلام نتاج البيئة العربية!

حسنا... لنتخيل كما يقولون؛ أنَّ هناك رجل اخترع القرآن من عنده وأسس لدين جديد، وسواء ابتكره وحده أو بمساعدة شخصيات مسيحية أو يهودية أو حنيفية.

من البديهي أنَّ الإنسان عندما يبتكر شيئا من عنده؛ لا يَنسى نفسه، ويجعل في المقدمة دينه الأخير والجديد؛ وأنْ يُعلي من شَخصِه كرسول مؤسس للدين.

ولكن: كيف نَسي محمد صلى الله عليه وسلم نفسه فورد ذكر «موسى» نبي اليهود؛ «136» مرة وفي 34 سورة!

كيف نسى «محمد» نفسه فورد ذكر «عيسى» نبي النصارى؛ «25» مرة، ومعه مرَّات «لأمه مريم وزكريا ويحي وبقية الرسل عليهم السلام».

ثم يَذْكر اســم «محمد» في القرآن فقط «أربع مرَّات، والخامسة بإســم «أحمد» على أنــه مذكور في الإنجيل! بــل وخوطب في القرآن بالعتاب والتوجيه وأحيانا اللوم.

حين عَبَــس، وحين أسرف في الدعاء على مــن قتلوا الصحابة وغُــدروا بهــم؛ وحين قيل لــه: إنك ميت، وحــين حَرَّمَ على نفســه حلالا، بل لم يُذكر في القرآن له «ابنا ولا زوجة ولا علي بن أبي طالب ولا حمزة!

بــل اليوم نرى القرآن هــو الدليل المــادي الوحيد على حقيقة تاريخية الديانة «اليهودية والمســيحية»، فنحن لا نحتاج بحث أثري ولا مادي عنْ أثر اليهودية ولا المســيحية، فقد أســهب القرآن في ذكر الأنبياء والأمم الســابقة وصَوَّر الأديان وكأنها؛ سلســلة وحيدة المصدر وذات رســالة واحدة وهدف واحد، القرآن أنصف الأديان السابقة؛ بينما ذكر من أرسله به بتواضع ونكران ذات، فقط «رحمة للعالمين» و» على خلق عظيم».

لو ســألنا أنفســنا بنزاهة وحيادية؛ كيف يكون الدين والقرآن حين يخترعه بشر!، هــل يكون بهذا النبل والانضباط؟، القرآن لم يعتد عــلى أو يهمل الأديان الســابقة؛ بل كرَّمهــا وعظَّمها وجعلها جزءاً من عقيدة المســلم، القــرآن أزال الشرك وأثبت

التوحيد ونــزَّه الله تعالى عن كل نقص وتشــبيه بالمخلوقات، ليس كمثله شيء.

الإســلام هو اليهودية والمســيحية في أصلهــا الأول الصافي، لو قُدم بهذه الصورة لكانت النتيجة مختلفة تماما، ولِما تســبَّبنا في هذا الحقد والكره والتحامل على الإسلام، هل نستطيع أنْ نُقدم الإسلام كما نبع في عصر الرســالة!، وخاصة أنَّ البشرية اليوم تعاني من ثغرة واســعة وعميقة في الروح!، أرى الغد القريب ســوف يتناول فيه الناس بَلسم الإســلام الصافي؛ طوعا وعن حب ومعرفة.

❊ ❊ ❊

كنز أمين معلوف

في كتابه «غَرق الحضارات»، يتحـــدث «أمين معلوف» بحنين عن مصر، حيث هاجر من لبنان مع أسرته المســـيحية إلى مصر، وعاش فيها سِـــنينا خَبِرَ فيها قوة مصر التي يتحدث عنْ سرها في كتابه، بعد رحيل الاســـتعمار الانجليـــزي صَدرت قرارات التأميم العشوائي القاسي والحقود، ثم هب مناخ يُخيف ويرهب كل أجنبـــي، وفَرَّ أمين معلوف وأسرته وباعوا ممتلكاتهم بمصر بثمن زهيـــد، يذكر أنْ لو قارنَّا بين مـــصر اليوم ومصر الأمس لوجدنا الفارق هائل، كالفرق بين الحياة والســـكون أو البريق والانطفاء، كيف حدث هذا؟

مصر في مناخ الاســـتعمار البريطـــاني كان يتجمع فيها خلاصة شـــعوب العالم، يكفي أنْ تقرأ أســـماء العاملين بأي فيلم عربي في الأربعينيات، ســـوف تجد جنســـيات من مختلف بلاد العالم، وهـــؤلاء الأجانب كانوا يســـكنون مـــصر ويشـــتغلون فيها وينســـجمون مع أهلها، ومن يقرأ مذكرات كثير من المصريين يجد كثـــيرا من الأحداث يتضمنها أجانب، ويرجع لهذا الفضل في أنَّ مصر كان بها فرق مسرحية وغنائية وصناعة سينما ومسرح

ومحال تجارية أجنبيـــة وبنوك وتعاملات من كل صنف، فمصر كانت بلدا عالمية، وتنوع الأعـــراق يُثري البلد ويدفعها للأمام في كل اتجاه.

ولهذا فمصر رغم الاحتـــلال كانت حلما لكل الناس، صحف وشـــعراء ومفكرين ورجال أعمال وساسة وعلماء وفنانين، كم تَمَنَّى غانـــدي أن يلتقي برجال مصر وأنْ تنال بلاده مكاســـب الوفد مع الإنجليز، يُشـــبِّه «معلوف» مصر الأمس، بالولايات المتحدة الأمريكية في تنوعها، فأمريكا على قمة العالم بالخِبرات من كل البلاد والتي تنجذب إلى الفردوس الأمريكي.

نالـــت مصر بالتنوع تلـــك المكانة وذلك الثـــراء، ثم أصبحت مصر متعصبة وجامدة الفكـــر وتميل للتفرد بالمصريين، فهرب الجميع وأصبحت البلد وحيدة النوع والعاطفة والفِكر والهَوية المصرية، وتزايد الميل للتجزؤ والانشطار، حتى المكوّن الثنائي المصري من المسلمين والمسيحيين لم يعد كما بالأمس، فَقَدَ كلاهما البريق والحَماس لبلدهم المشترك، فقد تقدمت الهوية الدينية على كل شيء، فشـــعر كلاهما بالغربة ولم يعد لأحد نفسية للإنجاز، وأصبـــح هَمّ كل طائفة البقاء حيا حتى يفرجها الله، وأصبحت الحياة منزوعة الدسم في فم الجميع.

عندما أتخيل المجتمع الأحادي وقضبانه الصارمة والتي لا ترحم، أراه مجتمع من الدجاج المتشابه التي يسير في تشكيلات تشبه خطوط الإنتاج في المصنع، كل الناس يعملون ويفكرون ويشعرون ويَحِسّون مثل كل الناس!، أنا أعتقد أنَّ أكثر بلوى يبتلى بها مجتمع هو أن يكون لونا واحدا، المجتمع الذي أغلب أفراده أشرار لا بد أن يكون مجتمعا فاشلا.

المجتمع الذي أغلب أفراده أخيار لا بد أن يكون مجتمعا فاشلا، وإلا كانت ارادة الله وحكمته أن ينشئ تلك المدينة الفاضلة، وإلا لسمح بهبوط آدم للأرض وحده ولم يسمح لإبليس!

المدينة الفاضلة والمدينة الشريرة لم يسمح الله بهما على الآرض، الأسرة التي كل أفرادها رأيا واحدا حتما هي أسرة فاشلة، الاختلاف هو سنة الله في بني آدم.

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (هود - 118)

من «المختلفين» الذكر والأنثى تنشأ الأسرة وينتج المَوَدَّة والسَكَن والتناسل وتستمر الحياة، من الأبيض والأسود وبقية ألوان الطيف تتشكل لوحة الحياة، وكلما زادت تفاصيل ألوان الطيف كلما امتلأت بكل أسباب الحياة والبريق والازدهار.

لماذا نَضيق بالاختلاف ونحلم بالتطابق؟

نحن نحلــم الحلم الخطأ .. الحلم الفاشــل .. الحلم المُهلك .. الحلم الضــال. البلد التي بها أديان مختلفة وعِرقيات مختلفة هي أكثر البلاد المرشَّحة للنهضة السريعة، شرط أن تكون خالية من الفكرة الطائفية المتعصبة والمغرورة والنافرة من الآخر.

البلــد التي بها دين واحد ومذهب واحد وعِرق واحد لا بد لها من التعرّف على كل الأعــراق خارجها، والا وقعت في الواقع العربي الذي يرفض المختلف ويتمنى زواله ويُشيْطِنه.

❊ ❊ ❊

انفلونزا الصَنَميّة

الانفلونزا من الأمراض التي تصيب أي شخص، وهي مرض شـــعبي، أيضا الصَنَمية وعبادة الأصنام من البشر هي المرض الشعبي المشترك، فلكل منا صنمه، بل لكل منا أصنامه.

الصنمية مرض، ولكن بلا حُمَّى ولا عَطس ولا التهاب جُيوب أنفيه، وكما كان لكل قبيلة صنم في الكعبة قبل الإسلام، فاليوم ووفقا للحداثة فهناك صنم (وربما أكثر من صنم) لكل مواطن، ومن يكابر وينكر فهو واهم ومتكبر وينكر ضوء ولسعة شمس الصيف وهي في كبد السماء.

الكتـــب والروايـــات والأســـاطير التي تقدس الأشـــخاص وتمنحهم العِصمـــة؛ تَعمل فينا عمل الســـحر وتنشر الخِدر في أعصابنا ونفوسنا، في الوضع الطبيعي عندما نعاصر شخصية؛ تكون الأخطاء والإنجازات كتفا بكتف، واضحة وعارية وبلا رتوش أو صبغات أو أقنعة، يســـهل على أي بنـــي آدم التمييز بينهم، مثل من يُميز بسهولة بين الألوان بدرجاتها المختلفة.

ولكن عندما تُروى الحكايات عن المُلهم والمَوهوب والعبقري والألمعـــي والرائد والســـابق والمبـــادر والقديـــس والشريف والمتجرد.. ووو..

كل حكاية تَرفع من الشخص إلى عنان السماء ليجاور الأنبياء؛ حتى لو كان شـيوعيا أو وجوديا أو ملحـدا أو زعيم عصابة، فرداء القديس يُطَهِّر كل شيء ويُوحِّد الصِبغة.

فقـط يصعد الشـخص على رافعـة الحكايـات والروايات، ومن يصعد لن يهبط! سـيدافع عنه حرَّاس المعبد الذين جعلوا منه دينا وقديسـا، يصعـد إلى جوار الأنبياء في سـيرتهم ببطء ونعومة ووهم وخيال، ثـم يصبح هبوطه لمكانه الأصلي كبشر من المستحيلات.

فحراس المعبد سوف يموتون في سبيله، وسوف يَقتلونك أيضا في سبيله. هذا هو .. ولكن هل رأى الحب سكارى مثلنا؟

❊ ❊ ❊

تَيَبّس

قالها «عادل إمام» من قبل: «بلد بتاعة شهادات!»

مسار التعليم والتخصص في العالم وفي بلادنا، هو مسار حديث، أصبح قضبانا حديدية تسير عليها الدولة والمجتمع في طاعة عمياء، يحكي «عبد الوهاب المسيري»: أخبرني عميد الكلية أنهم يُدَرِّسون أحد كتبي لطلبة الدراسات العليا بجامعة القاهرة، فقلت له: «طالما تدَرِّسون كتابي فأنا الأولى بتدريسه! فقال لي العميد: «لا يمكن، لأنك لا تحمل شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع»!

وكان أمرا مضحكا، فمن وصل مستواه لدرجة تدريس كتبه لطلاب الدراسات العليا، هل يحتاج لشهادة تثبت أهليته لتدريس كتابه؟، هل كتابه يلقى تقدير وتكريم بينما هو يُمنع؟، منطق مُضحك ولكنه الواقع المتيبس وعديم المرونة.

الكل يعرف قدر «عباس محمود العقاد» وقدر «طه حسين»، نال طه حسين تقديرا كبيرا في مصر مقارنة بالعقاد، وكم كانت الحساسية شديدة بين العملاقين، ولكن التراث الأدبي للعقاد يتفوق كثيرا جدا على تراث طه حسين، ونظرا لأنَّ العقاد

يَحمل الشـــهادة الابتدائية؛ لم يكن له مكانة في السلك الجامعي، هل خطر ببال الدولة أنْ تســـمح له بالتدريـــس في الجامعة؟، ومنْ أفضل منه لتثقيف شبابنا الجامعي؟، وهل كان هذا ممكنا؟

ماذا لو تَخَطَّى أحـــد النوابغ قضبان التعليـــم الحديدية، وتقدم للامتحـــان في تخصص رفيـــع دون أن يكون معه الشـــهادات المتتالية المرسومة؟ وتفوق على الجميع؟

للأسف لا مكان للســـير على الأرض في هذا الزمان، القضبان مقيدة فيها أحذيتنا وموضع أقدامنا، على الرغم منْ أنَّ الأرض متسعة ومَرِنة ومثمرة.

* * *

طُوِيَت ولا ندري

نظر الإنســان يتركز على نصف الكوب الفارغ، يغفل دائما عن النصف الممتلئ، حتى حــين النظر إلى الموت، يتركز النظر على الجسد عندما يهبط ليُدفن أسفل الأرض، يَغفل عن الروح التي تصعد إلى السماء. يُشفق على جسد يفنى، يَفوته أنْ يفرح لروح تتحرر، روح صاعدة بذنوب ثقيلة إلى الرحمن الرحيم.

من المعلومات التي أصبحت بديهة لدينا، أنّ أشــعة الشــمس تُســافر إلينا وتصل في ثمانية دقائق، ولا نشعر بها إلاّ حين تلسَع وجوهَنا، ربما تحجبها السحب والغيوم، لكن لا نستطيع أنْ نُنكر وجود الشمس ولا استمرار مدِّها لنا بالأشعة الدافئة والحياة.

والمدهش أننا أكتشــفنا حديثــا أنَّ النجوم التــي ناجاها قيس وشعراء الدنيا؛ قد غادرت هذا المكان من ملايين السنين، ومنها من كُتبت شــهادة وفاته أيضا من ملايين الســنين، وأنَّ الضوء المنبعث من النجم قد انطلق وسافر إلينا ولم يصل إلا اليوم، وما نراه ما هو إلا صورة لمواقع النجوم

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾. (الواقعة – 75)

حـــين أتحدث اليـــوم عن الواقـــع أقـــول إنَّ الصفحة طويت، وما نراه اليوم لن نراه غدا، وأنَّ علينا أنْ نســـتمتع بمشـــاهدة القِطار من ظهره وهو يرحل، ننظر إليه وصورته تتضاءل للمرة الأخيرة حتى يختفي ولن يعود ثانية، وســـوف نســـتقل قطارا جديدا وحديثـــا، نأمل فيه ونتمنى أنْ يُشـــعرنا بالحياة والرضا عن النفس، ما نراه اليوم هـــو مواقع الدول وطَيفها قبل تحوّلها أو فنائهـــا، الحقيقة التي لن تتحول ولن تفنى هي الشـــعوب، ليس شرطا أن تزول الدول فالاحتمالات عديدة.

تأتي الصين .. تولي أمريـــكا ظهرها .. تتكون تكتّلات .. تُلتَهم دول، ليـــس شرطا أنْ تَـــزول الحكومات، فوســـائل الرحيل مختلفة، هناك رحيل بالأجســـاد، وهناك رحيل بتغيير الأفكار والعلاقات والوسائل.

الخيار مازال متاحا أمام الجميع، ولكن لوقت قصير جدا، زوال الأجساد سيكون مزلزِلا وسوف يُدْمي الجميع، وزوال الأفكار والعلاقات والوسائل ســـوف يكون متدرِّجا ولكن أكثر أمانا، والطفرة دائما تَحمل المجهـــول والغير مأمون، وغالبا ما يخطفها الغراب الجديد ويطير، ولكن لن يحدث هذا ثانية.

أصبح الوضع مثل قطع الدومينو وهي متراصة ومتساندة على بعضها، وهناك نقط عدم إتزان في الدول المتراصة كالدومينو.

هناك احتـــمال كبير للانهيار، الانهيار للجميـــع، انهيار هو عين البناء فيما بعـــد، الجيل الـــذي ابتلع الطُعـــم طُويت صفحته؛ حل مكانه جيل ولا أروع، المثقفون الذين تاهو وخانوا وأكلوا الفَلَوْذَج؛ حل محلهم رجال المرحلة ممن تسلح بالوعي والفَهم وينوي أنْ يصون شرفه.

الشباب الذي لهث وضلّ وراء البحث عنْ صاحب الكاريزما وحبيب الملايين؛ بات يبحث عن البطل الذي فيه، ولم يعد يَغرّه حِيَل الأوغاد.

التغيير آت لا محالة، والوعي سيسود.

❊ ❊ ❊

نَزْع الفتيل

كان أحـــد القضاة الفقهاء على المنصَّـــة؛ ينظر القضايا المتراكمة أمامه؛ والتي يصل عددهـــا إلى ثلاثين قضية، مَثَل أمامه في يومٍ زوجان، مع كل زوج جَمْهرة من الأهل، قد احمرَّت أعيُنهم.... وتجهَّمت قَسَمات وجوههم... وانتْفَخَت أوْداجهم.

أدرك القـــاضي خُطـــورة الوضع، قـــام باســـتدعاء الزوجين وحدهما، أمر بأن يختليا في غرفـــة خاصة ويُغْلق عليهما الباب، وقام بتأخير القضيـــة إلى آخر القضايـــا، أراد أنْ ينفرد الرجل وزوجته لســـاعات على أمل العِتاب المتبادل، طلب لهما أطايب الشراب والفاكهة على نَفَقته الخاصة، ثم حانت القضية للنظر، طرق عليهما الحارس البـــاب وصحبهما إلى القاضي، أعلن كل منهما التنازل عن القضية وانعقاد الصلح.

يقول القاضي: قمت بتطبيق تلـــك الطريقة بعدها في كل مرة، كانت النتيجة ناجحة بنســـبة 75٪ على مدار ثلاثين ســـنة من عملي بالقضاء.

ينصـــح القـــاضي ألا يلجـــأ الزوجـــان إلى «حَكَـــم» بينهـــما؛ إلا عندما لا يصبح هناك أي خيار آخر، ويُشدِّد على أنَّ «الحَكَم»

ليس هو الأقرب في الدم، بل الأقرب في الرحمة والحِكمة والرغبة في لمّ الشمل، ولن تخلو العائلة ممن تتوافر فيه تلك الصفة والنية.

في قصة أخرى يحكيها البروفيسور «جاسم المطوع» أنَّه في إحدى الجلسات الودية للفصل بين زوجين، وكانا دائمي الشجار بلا توقف، قال لهما: عندي حل أخير قبل أنْ أطلقكما، توجه للزوج قائلا: هل تضمن أنك لن تتشاجر مع زوجتك اليوم فقط مهما فَعَلَت؟

فقال الزوج: نعم أضمن.

ثم سأل الزوجة نفس السؤال؛ فقالت نعم أستطيع طالما لم يبدأ هو، ولكن ليوم واحد فقط.

فما كان من الزوجة إلا انْ أحسَّت بالامان وزال التحفز، وألقت بأسلحتها الدفاعية والهجومية، ومر اليوم بسلام دون اشتباك بين الزوجين، كرر القاضي الفرصة يوما بعد يوم، ثم اكتشف الزوجان أنَّ الشجار بينهما؛ لم يكن إلا بسبب التحفز المتبادل، تحفز لمواجهة توقع تحامل كل منهما على الآخر، فلما ضَمِن كلاهما الأمان..... زال التوتر وحل الوئام.

نريد مثل هؤلاء الفقهاء في حياتنا وبلادنا ودنيانا ودِيننا وسياستنا؛ وفي أشياء أخرى.

❊ ❊ ❊

الخيال المَقْهور

فيلم «عسل أسود» كان تجسيدا لمصر والمصريين في العصر الحديث، فيلم مكتوب بأقلام مُحْتَرِفَة وحسَّاسة ومُلْهَمة، حتى الأغاني التي أبدعها ستكون خالدة مثل الفيلم.

وكان من الممكن أنْ أسير في الرَكْب وأكتفي بالإعجاب مثلما تُعجبني الزهرة على أغصانها، أشمّها وأنظر إليها كلما أردت أن ينتشر بوجداني السِر الذي أودعه الله فيها، ولكني لم أكتف بذلك وتأملت في الفيلم وعرضته على الوعي ومَسْطَرتي القِيَمِيَّة.

قمت بالتأمل في الفيلم والتفتيش فيه بعين ناقِدة، ثم تساءلت؛ ما هي الخلاصة التي حَقَنها الفيلم في وجدان المُشاهد؟، فوجدت الإجابة المدهشة هي؛

أنَّ مصر رغم ما بها من أكوام من التناقضات والإهانات، ورغم ما بها من طَبقات مُتراكبة لا تُعد ولا تُحصى من الفَساد، ورغم ما بها من يأس مُطْبَق من اليوم والغد، فيها حاجة حلوة .. مثلما الخمر (المُعَتَّقة).

وهذه الحاجة الحلوة هي التي جعلت الشـــاب (مِصري) يُصِر على حِلمه المهزوم، فيفتعل حيلة ليعود بالطائرة بجواز الســـفر الأمريكي إلى مصر، ويختار نار مصر على جنة أمريكا، علشـــان فيها حاجة حلوة.

هذه هي خلاصة الفيلم الرائع والمُدَغْدغ لكل أحاسيس المصري الضالة، مصر هي كما هي؛ وتأمَّلوا كلمات الأغنية المبهرة في دِقَّة وصِدق التعبيرات؛

بالورقة والقلم

خدتينى 100 ألم

انا شفت فيكى مرمطة وعرفت مين اللى اتظلم

ليه اللى جايلك أجنبى

عارفة عليه تطبطبى

وتركّبى الوش الخشب وعلى اللى منك تقلبى

عارفة سواد العسل

أهو ده اللى حالك ليه وصل

ازاى قوليلى مكملة وكل ده فيكى حصل

يا بلد معاندة نفسها

يا كل حاجة وعكسها

ازاى وانا صبرى انتهى لسة بشوف فيكى أمل

طرداك وهى بتحضنك

وهو ده اللى يجننك

بلد ماتعرف لو ساكنها والا هى بتسكنك

بتسرقك وتسلفك

ظلماك وبرضه بتنصفك

ازاى فى حضنك ملمومين وانتى على حالك كده

ورغم هذا الوصف الذي لا يوجد له وصف في كوكب الأرض في تناقضه وفسـاده؛ إلا أنَّ فيها حاجة حلوة واقبلوها كما هي، فـلا أمل في التغيـير ولا تُفكروا في أي حلـم، لأنَّه لو تغيرت سوف تزول النكْهة الحلوة، فالحاجة الحلوة هي أكسير نتج من تراكم القِمامة المصرية وتَعَفّنها.

هذه هي عيِّنة للافلام المصرية الناجحة فنيا وعن اسـتحقاق، فـماذا عن الأفلام الأجنبية التي هي حـرة بلا حدود وفي جميع الاتجاهات؟

في الأفــلام الأجنبية، الغني قد يتــزوج البغي حين يحبها؛ لأنه يكتشف فيها جمالا لم تســتطع مهنتها أنْ تلوِّثه، الإنسان يَخترق الزمان ويحيا في المســتقبل والماضي، الخيال بــلا حدود ويُلهِم العلم والمجتمع والفِكر.

أما عندنا؛ المرأة التي تُخطــئ لا بد أن يَقتلها أبوها أو أخوها أو تموت في حادثة كعقاب من السماء لها، أو يستيقظ ضمير المُعتدي ويتزوجها في القِسم ثم يُغلق على مأساتها الباب، المهندس لا بد أن يتزوج مهندســة والطبيب يتزوج طبيبة، الشرطي لا بد أنْ يقول للمواطن النملة؛ «يا روح أمك» ويَضربه ويهينه.

الثري بقوته الطاغية وصِلاته بالفاسدين؛ يَقهر البنت فتستسلم له أو يَقهر المواطن فيكون له مَداسا أو قُربانا، الموظف لا بد ان يَرتَشي حتى نكون واقعيين؛ لا بد أن يَتلفظ الشباب والشابات بأوســخ الألفاظ، وتَنْفلت منهم دوما تلميحات جِنسية تتلوها ضَحِكات ماجنة، أهل الحارات لا بد أن يكونوا ســداح مداح وكَبْت مُنْفلت وأخلاق ســائلة، انتقلنا من الواقعية للهبوط بلا قاع، فقدنا الحلم وفقدنا النشيد.

لماذا لا تُنتج أفلاما وتؤلف روايات وتكتب مقالات تَحلم بتغيير الواقع وتجسِّـــده أمامنا، يكون الشرطي إنسانا والموظف نَزيها والمسؤول شريفا وحكيما والإنسان كريما مُكرَّما!

تَنْشر الحب بين كل الناس بدلا من إثارة الأحقاد الطَبَقية، تبسط يد الرحمة بين الناس وخاصة من أعلى إلى أســفل، لا بد من أن يبــدأ أحدنا بإطلاق خياله وترتيل نشــيده الذي تســع كلماته وأحلامه كل الناس.

* * *

الرصيد الحضاري

يُعتبر «مهاتير محمد» « أبو النهضة الماليزية، ويُنْسَب إليه الفضل في النهوض بكل ماليزيا وسد الفجوة الهائلة بين شعب ماليزيا من الملاو والصينيين والهنود، وهو صاحب المقولة الشهيرة:

عندمـــا أزور بلدا ناميا يحتفـــوا بنا، بينما الـــدول الكبرى ترانا متسولين، ولهذا لم أزر أمريكا إلا بعد ثلاث سنوات من رئاستي.

في برنامج شـــاهد على العصر، الذي استضاف «مهاتير محمد» ســـأله مقدِّم البرنامج عمَّا يقال من أنّ الصينيين قد ســـاهموا في نَهضة ماليزيا!

كان من المتوقع أن يسارع «مهاتير» بِنفي هذه الإشاعة المُغْرضة والتي تُقلل من قَـــدْر وقُدْرة وذكاء الماليزيين أصحاب الأرض وأهل البلد الأصليين، ولكنْ كانت المفاجأة المدهشة حين قال:

- هناك عامل جوهري لا يمكن مُنافَسته في الصينيين؛ أنَّ لهم رصيد حضاري يَحملـــه كل مواطن صيني، وهو رصيد لا يمكن مقارنته بالطفولة الحضارية للشعب الملاوي، الذين هم السكان الأصليين في ماليزيا.

وهكذا يتحدث العُقَلاء المتنزهون عن العُقَد النفسية، اعترف «مهاتير محمد» بهذه الميزة القوية للصينيين وأنَّه استخدمها كأحد عوامل نهضة ماليزيا.

ماليزيا اليوم التي هي من الدول الصناعية الكبرى، والتي تَهنأ باستقرار مثالي رغم تعدد الطوائف والعِرقيات فيها.

هذا الميراث والرصيد الحضاري لدى الصينيين، هو نفس الرصيد الذي يتوفر للعرب كافة، فالحضارات القديمة الرائدة نَبتت أغلبها في بلاد العرب، وهذه الشعوب عاصرت أشهر الرسل والرسالات، وخرجت منها أشهر وأول الاختراعات والإبداعات الإنسانية.

شَهدت الصين قبل نهضتها هَوَانا وظُلما من المستعمرين الأوربيين زمنا طويلا، وأغرقتها بريطانيا بالمخدرات، حتى كان الواحد من كل ثلاثة مُدمنا للأفيون، ومع ذلك نهضت الصين بمجرد أنْ أتيحت لها الفرصة، واستثمرت الموروث الحضاري الكامن في الفرد الصيني، وتستعد اليوم لصدارة العالم.

والرصيد الحضاري للعرب، هو سر الضغط الأوربي والأمريكي العنيف والعنيد على الشعوب العربية.

الضغط بلا رحمة، لأنهم يعلمون ما لا نعلمه عن أنفســنا؛ عن تديننا .. عروبتنا .. لغتنا .. تاريخنا .. موقعنا الجغرافي .. وأخيرا رصيدنا الحضاري.

❊ ❊ ❊

نبوءة الأدباء

عندمـــا قامت الثورة الشـــيوعية بقيادة «لينـــين»؛ قال له رفيقه الأديب والروائي «مكســـيم جوركـــي»: (إنَّ الانحناء بزاوية دقيقة جدا في نقطة بداية الانطلاق، ســـوف يتحول لانحراف بمئات الأميال مع اســـتمرار المســـيرة، لذلك لا بد من دِراسة نقطة البداية جيدا، حتى يكون الانحراف أقل ما يمكن، وحتى لا نبعد عن الهدف الأصلي، فنجد أنفسنا نتَّجه للخلف، فيتحول الهدف منَ الخير إلى الشر).

فردّ عليه «لينين» قائلا: (على مكسيم جوركي أنْ يهتم بالأدب والرواية، ويُقَلِل من اهتمامه بالسياسة).

وكما تنبأ ماكســـم جوركي، سقطت الشيوعية بعد سبعين عام، وحَقَّقت عكس مرادها، فبدلا منْ أنْ تُسْـــعد الإنسان البسيط الضعيـــف المقهور؛ وبدلا مـــنْ أنْ تُحَقِّق العدل والمســـاواة بين الناس؛ شَقِيت الشعوب كما لم يَحدث في التاريخ من قبل.

فالكســـل عن دراســـة الهدف والكِبْر والاســـتعجال في نقطة الانطلاق وعدم المراجعة المستمرة؛ يدفع ثمنه الملايين لسنوات طويلة، وللأســـف لا يُكْتَشـــف التيه وأســـبابه إلا بعد فوات

الأوان، ولا يمكن التوقف أو فك الأحبال التي التفت حولهم مع الاستمرار العنيد في المسير؛ إلا بعد نفاذ الوقود الذي أشعل النـــيران، فمن يَصْطلي بالنار لا يجد المِزاج وصفاء الذِهن لمعرفة كيـــف وقع فيها، إلا بعـــد أن تَنطفئ ويتحـــول غالب منْ فيها لرماد، وهذا ثمن إهمال السياسي والثَوري للفِكر والمُفكرين.

عندمـــا أطاحت الثورة الإيرانية بشـــاه إيـــران، عام 1979م؛ اندلعـــت أزمة احتجـــاز أفراد الســـفارة الأمريكيـــة في إيران كرهائن، توتَّرت العلاقة بين إيـــران والأمريكان، قامت الدنيا ضد إيران وصدرت بِحقها عُقوبات مؤلمة، أثناء مناقشـــة تلك العقوبات في الإعلام من متخصصين في كافة المجالات؛ أذكر أحد الخبراء اليهود في عِلم الاجتماع في برنامج إعلامي؛ قال:

عندي ثلاثة أسباب لرفض هذا الإجراء:

أولا: أرى أنَّ فرض العقوبات من أفشل القرارات التي سوف تَصب في صالح إيران، هذا شـــعب ثار على حاكِمه، ويعتقد أنَّه نال حريته، وحين تُفرض عليه العقوبات، ســـوف يَفوز زعماء الثورة بمبَرِّر لحَشد وتَكتّل الشعب معهم، وسوف يقولون لهم: « إنَّ العالم الغربي الذي يُمثل الاستعمار القديم ضدَّكم ولا يريد لكم الحرية»، فتتجمع للشعب طاقة تَحَمّل وعِناد هائلة، يَصمد بها أمام تلك العقوبات ويُبْطل أثرها.

ثانيا: قائـــد الثورة مَرجع ديني، ولكن معه شركاء من التيارات الليبرالية والقومية والعلمانية أيضا، وبتطبيق العقوبات ســـوف يتـــم التخلص منهم جميعـــا في خِضَمّ هذا الهيـــاج الجماهيري، ويُصبح الحُكم دينيا خالصا.

ثالثـــا: بالعقوبات تَمنعون عنهم سِـــلعا وآلات كانوا يعتمدون عليكم في اســـتيرادها، هم اليوم لا يُفَكرون في سُوق آخر أو في إنتاج تلك الآلات والسِـــلع، وحين تُمنـــع عنهم، يتجه التفكير إلى الاعتماد على الذَّات والســـعي لعدم الوقـــوع في فخ الدولة المســـتهلِكة التي يُفرض عليها عُقوبـــات، ثم تُصبح نِدًّا للدول التي عاقبتها.

ومن منطلق ذلك، فأنا أرى أنّ هذه العقوبات سوف تَفشل في تحقيق الغرض منها، بل ستُقوِّي تَطرّف المسيطرين على الدولة؛ وتكون تلك العقوبات هي طوق النجاة والتمكين لهم.

واليوم نحن نرى إيران التي يســـيطر عليها رجال الدين، وهي تتفاوض في الملف النووي من منطلق قوة، فنتذكر نصيحة هذا العالم الخبير ونَفْهَم أنَّ تجاهل صـــوت العقل والحكمة والخِبرة ثمنه فادح على الجميع.

في كتاب «زكي نجيب محمود» الذي صدر عام 1978 بعنوان: «مجتمع جديـــد أو الكارثة»، يتحدث أنَّـــه في عام 1925، قام ناشر انجليزي بمـــشروع طَموح ونافع، طلب مـــن مائة عالم وباحث وأديب، أن يتعاونوا على إخراج عدة كتب، كلٌ في فرع تخصّصه، يتنبأ هؤلاء جميعا بما ســـوف تكون عليه حياة الناس بصفة عامة، وفي إنجلترا بصفة خاصة، بعد خمسين عام منْ هذا التاريـــخ، وكانت وجهة نظره أنَّ هذا المـــشروع لتقديم صورة مســـتقبلية، سوف يُتيح لمنْ يَهمه الأمر أن يتَدَبَّر وسائل مواجهة وقوع الأحداث التي يتنبأ بها المُختصون.

وصدرت المجموعة في حينها وبعد خمسين عام تبيَّن أن؛

إلى حد كبير كانـــت التوقعات قريبة مـــن الواقع الذي حدث بالفعل!، نعم هنـــاك أخطاء كثيرة ولكن الصـــواب كان أكبر وكان مفيدا للغاية.

من ضمن التوقعات المدهشـــة، ورغـــم أن الكتب صدرت في العشرينات وقبل إنشـــاء دولة إسرائيل بثلاثـــين عام، كان في الكتب نبـــوءة قيام دولة اسرائيل، وفي نفـــس الفقرة تنبأ نفس المفكر بسرعـــة انحلالها، وعلل ذلك الانحـــلال السريع بأنَّ؛ عُقدة الاضطهاد التي تَوقَّع عندئذ أنْ تكون ســـببا في الإسراع

بنشأة الدولة الاسرائيلية، وسوف تكون وقود قيامها، سوف يأتي وقت ينتهي هذا الوقود، وبانتهائه تزول نتائجه، فيتوقف التعاطف مع إسرائيل ويأمن اليهود في العالم وتُطرد إسرائيل من الجسد الذي زُرِعت فيه.

هذه القصص الثلاثة تُعطينا درسا عن مدى الخطأ حين أهملنا مجالات العلوم الانسانية مثل الفلسفة والمنطق والتاريخ والاجتماع، وهم الذين يُنتجوا الرؤية المستقبلية وهم الحكماء الذين قال عنهم الكواكبي:

ما بال الزمان يضن علينا برجال يُنَبِّهون الناس، يرفعون الالتباس، يُفكرون بحزم ويعملون بعزم، ولا ينفكون حتى ينالوا ما يريدون.

❊ ❊ ❊

لا أعرف

يُعَد الدكتور «محمود جيلاني»، من أميز من قام بالتأليف في مجال الكهرباء باللغة العربية، يَرْوي قِصة مناقَشَتِه لرسالته للدكتوراه في مجـــال «Digital Protection»، أي «الوقاية الرقمية» وذلك في أكبر جامعات كنـــدا وتحت إشراف أكبر أســـاتذتها، كانت الصدمة في أنَّ المُمتحن الخارجي هو «البروفيســـور رقم واحد في العـــالم في مجال الوقاية الرقمية»، وفي بداية المناقشـــة كان منَ المتوقَّع أن يسأله الســـؤال الأول مباشرة عن موضوع الرسالة؛ ولكنه بدأ بســـؤال؛ (الوقايـــة الرقمية هي مرشـــح رقمي... «Digital Filter»...اشرح العبارة!)

وكانت صدْمة أنَّه ســـأله ســـؤالا خارج الرســـالة، فما كان من الدكتور «جيلاني» إلا أنْ اســـتعمل خطة الطلبة المِصريين؛ بأنْ يَدور حول الموضوع ويَسْترســـل ويثرثر حتى يَظن المُستمع أنه بَحْر منْ عِلم، ولكن الخطة فَشَـــلت، تَركـــه الرجل يتكلم؛ ثم عاوده بالقول: ولكنك لمْ تجب على السؤال!

ثم أعاد عليه نفس الســـؤال مرة ثانية وثالثة ورابعة، وتصاعد الارتباك والتوتر على الدكتور «جيلاني».

خَشيَ المُشرف على الرسالة أنْ يَفقد الطالب كل تركيزه وينهار مبكرا؛ وهو يعلم أنَّه طالب متميز، فما كان منه إلا أنْ قال للبروفيسور في جملة واضحة:

كفى يا دكتور، لننتقل إلى السؤال التالي!

فما كان من البروفيسور الشهير إلا أنْ قام باحترافية بتوجيه أسئلة مباشرة، لأنَّه من واقع الإجابة عن السؤال الأول؛ عَرف أنَّه أمام طالب دكتوراه عادي وليس متميزا كما ظنَّ عندما قرأ الرسالة، وفي النهاية نال جيلاني الدكتوراه بتفوق.

وفي اليوم التالي استدعاه البروفيسور المُشرف على الرسالة والذي كان يُدافع عنه بالأمس؛ ليقول له: لماذا تَخجل أنْ تقول لا أعرف؟

ومن تلك اللحظة تذكر الدكتور قول الإمام «مالك»؛

عندما سئل عن ثلاثين مسألة فأجاب عن عشرة وفي الباقي قال: لا أعلم؛ قال له السائل: وماذا أقول للناس الذين أرسلوني إليك لأسألك؟

فقال في ثقة: قل لهم مالك بن أنس لا يعلم.

ومن ذلك اليوم تعلم جيلاني الدرس؛ وهو ألَّا يخجل من القول للطالب بأنه لا يعلم، بل أصبح يُحب الأسئلة التي لا يَعلمها فيلتقطها من الطلبة ليَبحث عنها، وأدرك أنَّ الذين يُرحبون بالأسئلة ليبحثوا عن إجابتها هم أبناء الغد وفرسان المستقبل.

والذين يَتسرَّعون بالفتوى والإجابة ويُكابرون خشية أنْ يُكتشف جهلهم بمسألة من المسائل؛ هم أبناء التَخلف والدَعْوى الكاذبة.

* * *

الحكمة من أفواه الفنانين

عندما نتحــدث في الموبايل، يَحدث أحيانــا أنْ يكون الصوت المســتقبَل ضعيفــا، فيقوم الإنســان غريزيا برفــع الصوت، فينزعج مَنْ حوله، وعندما يُخبرهم بالسبب، يوبّخوه ساخرين: «الآخَــر هو الذي يَجــب أن يَرفع صوتــه لا أنت»، ويضحك الجميع من هذا الموقف الطريف.

في الثمانينيات، حدث في مصر انتقال وتبادل أماكن في الطبقات الاجتماعية نتيجة سفر الحِرَفِيِّين والصنايعية للخارج، فأصبحت تلــك الطَبقــة هي القــادرة على دفــع ثمن التذكــرة لحضور المَسرحيات والحفلات الغنائية، فكان الانضباط مُنْفلت، وحل محل التصفيق المنضبط؛ الــصراخ والصَفير والكلمات العارية، وكان هذا يُربك المُمثل أو المُغني.

في حديث إذاعي مع الفنان «عبد المنعم مدبولي» سألته المذيعة: «كيف تتصرف حــين يَصْخب الجمهور ويُغَطِّــي على الحِوار في المسرحية؟

قال»: (عندمــا يرتفع صوت الجمهور أخفــض أنا صوتي!)، اندهشــت المذيعة وتَعجَّبت منْ هذا الجواب المُخالف للتوقع،

فقال: (هذه هي الوسيلة الأكيدة لاسترجاع هدوء الجمهور في أسرع وقت، فحين أخفض صوتي يقوم الجمهور نفسه بمعالجة المشكلة؛ يقول بعضهم لبعض: «لو سمحت أريد أنْ أستمع للمسرحية»، فلو رفعت صوتي لزاد نشاط الجمهور وزايد برفع صوته).

بهذا الجواب أدْركت أهمية الخِبْرة في كل مجالات الحياة، وتأكد عندي أهمية أنْ أحرص على سماع خبرة أي إنسان في الحياة، فلا بد أنَّه يملك خبرة خاصة مفيدة.

«يُذَكّرني هذا بفؤاد المهندس زميله ورفيقه في عالم الكوميديا، كان زواج فؤاد المهندس من شويكار يُعد من الزيجات النادرة في الوسط الفني، حيث كان الطلاق السريع هو الأصل بين الأزواج من الفنانين، والأسباب الشائعة هي: تسرب الملل والمنافسة وتعارض الطموح بين أصحاب المهنة الواحدة.

عُرض سيناريو مسرحية «ريا وسكينة» على شويكار، فطلبت المشورة من فؤاد المهندس، فقال لها: أعتقد يا شويكار أنَّه من الصعب جدا أنْ تنجح مسرحية تكون البطلة سفاحة، صعب أنْ يتعاطف معها الجمهور، فاستمعت لنصيحته ورفضت، وحلت محلها الفنانة شادية؛ ثم كان النجاح الهائل الذي

تألمت شـــويكار لضياعه منها، فألقت اللوم على فؤاد المهندس ثم حدث الطلاق بين الزوجين المحســـودين، بعد زواج استمر عشرين عاما.

وفي لقاء مع «فؤاد المهندس» وســـؤاله عـــن هذا الخبر الفاجع؛ لم يتحدث عن الســـبب مباشرة؛ ولكن أجـــاب بأن حَكى عن نفسه شيئا غريبا، لا يمكن أن أنساه.

قال: أنا أحب أتدلع، ولازم حد يدلعني ويمدحني، ولما أحس أني جعان دلع؛ أتجه للمرايا وأنظر لنفسي، وأفضل أقول: ياواد يا فؤاد يالي مفيـــش منك، «أيه الجمال ده، وأيه الوســـامة دي، وأظل أثني على نفسي بالحق والباطل».

وعندما كانت تراه زوجته شويكار، وتنظر إلى ما مَدح به نفسه وتقارنه بســـاقه المُنْحنية وعَجِيزته المضحكـــة وبَطنه المترهلة، كانت تضحك منه ويضحكا معا.

هذا الرد من المهندس يُعَبِّر عن فَقْر الإنسان المُزمن للتقدير ولو عن مجاملة، والثغرة واضحة في زواج الفنانين، فكلاهما مدمني تلقي المديح، وهذا هو عالم الفن.

من المعروف أنَّ الفنان «أشرف عبد الباقي»؛ اختفى عن الحياة الفنية سنوات؛ ثم ظهر مع تبنيه مشروع؛ «مسرح مصر»، سألته إعلامية في لقاء مذاع؛ عن السبب وراء تلك الخطوة!، فما كان منه إلا أنْ قال: «جلست في بيتي أعواما ولم يُعْرَض عليّ عملا فنيا يناسبني، وكنت ألزم البيت، وكان ابني يسألني: لماذا يا أبي لا تذهب للعمل مثل كل آباء أصدقائي؟

ففكرت طويلا وبعمق، وقلت لنفسي: «بالفعل يجب على الآباء أن يخرجوا من بيتهم صباحا للعمل ثم يعودوا»، فقررت أنْ أعمل «مسرح مصر»، كي أخرج كل صباح أمام ابني».

استمعت له وأنا مَشْدوها من بساطته وصِدقه بل وشجاعته، فهي نفس الصفة التي تُميزه هو وكل فنان مبدع، ثم سرحت بفكري وأنا أتفق معه في أنَّ النجاح قرين البساطة والصراحة، النجاح عدو العقد النفسية.

وكلما كان الإنسان واضحا وصريحا ومتواضعا؛ كلما كان أقرب للناس وأسرع إلى احتلال قلوبهم.

❊ ❊ ❊

كنز الاختلاف

كتب «جون لوك» الفيلسوف الإنجليزي كتاب «محاولات في الفهم البشري»، تحدث فيه عنْ أنَّ العقل صفحة بيضاء، تقوم التجربة بالنقش فيه، فلا وجود فطري لشيء في العقل.

قرأ الفيلسوف الألماني الشهير «ليبنتز» الكتاب؛ كتب نقدا في ورقات، أرسلها ل «جون لوك» مع صديق كان مسافرا إلى إنجلترا، فلم يرد «جون لوك على رسالته، فأرسل «ليبنتز» له رسالة تالية مع صديق آخر؛ مسافر من ألمانيا لإنجلترا، فرد عليه «جون لوك» بورقة مكتوب فيها؛

«نحن الإنجليز في راحة تامة مع جيراننا الألمان، «فهم لا يَفهمون ما نكتب، «ونحن لا نقرأ ما يكتبون». وقد كان «جون لوك» يجهل قدر «ليبنتز» كفيلسوف نابغة.

ثار «ليبنتز» بشدة لتلك الإهانة، فكتب كتابا بعنوان « محاولات جديدة في الفهم البشري»، تخيل فيها حوارا بينه وبين «جون لوك، كتب كل فقرة في كتاب «لوك» ورد عليها بفقرة من عنده ينقدها، ثم عندما همَّ بنشر هذا الكتاب؛ علم أن «جون لوك» توفي، فكان موقفه نبيلا؛ فلم ينشر الكتاب؛ ووضعه في مكتبته

إلى أنْ توفي «ليبنتز»، ونشر الكتاب بعد وفاة « ليبنتز» بخمسين عامـــا، ليكون أكبر معركة فكرية في نظرية العقل؛ وأثمن كتاب في تحليل نظرية المعرفة.

وهكذا كان نتاج الإهانة من «جون لوك» إلى «ليبنتز»؛ أنْ خرج كتاب يُعتبر مَرجعا استثنائيا، في تاريخ الفكر.

في هـــذه القصص، نجـــد أنَّ الخلاف والغِـــيرة والأنا والكِبر؛ ســـاروا مســـارا طبيعيا بين العمالقة من زعماء أوربا، وكان لهذا التنافس والتباغض، أثرا في إثراء النهضة الأوربية.

أما نحن العرب؛ كما يقول عادل إمام «ناس طيبين قوي».

في فرنســـا وقبل الثورة الفرنســـية، كان «روســـو» شابا شديد الذكاء، تقدم لمســـابقة أعلنت عنها جريدة شـــهيرة؛ المطلوب الإجابة عن ســـؤال؛ «مـــا أصل التفاوت بـــين البشر»؟، تقدم «روسو» للمســـابقة وفاز بها، وكان خلاصة الإجابة هي فكرة جديدة سوف تصبح فلسفة فيما بعد.

حيث ذكر فيها مصطلح «التربية الســـلبية»، يقول: «كي تنشئ إنسانا صالحا ينبغي ترك الحرية للطبيعة الجسدية والنفسية فتنمو بتلقائية دون تدخل الكبار وتقييدهم».

وقال؛ «إن الكائن البشري، هو الوحيد من الكائنات الحيوانية التي يتميز بالغباء لأنه استعمل عقله، بينما الحيوان؛ كان من النضج بحيث تخلى عن دماغه لكي يعيش كما ينبغي، فالإنسان استعمل عقله فأعاق نموه الطبيعي.»

بعد فوز روسو بالمسابقة، تجرَّأ وطرق على باب بيت الفيلسوف الشهير «فولتير»، أعطاه الأوراق التي تحتوي إجابته الفائزة في المسابقة، وطلب تعليقه عليها، لم يرد «فولتير» سريعا، ولكن في آخر الأمر؛ كان لا بد أن يُخبر الشاب؛ بعدم رضاه عن فكرته.

فكتب له ورقة قال فيها تعليقه الآتي:

«يشتهي المرء عندما ينتهي من كتابك أنْ يمشي على أربع قوائم، لم يستعمل أحد عقله كما استعملته أنت من أجل أنْ تجعلنا شبيهين بالبهائم.

ومن تلك النقطة؛ كان العداء الشديد بين «روسو وفولتير» وهما الذان كانا إلهاما للثورة الفرنسية، فقد كانت حرارة المشاعر العنيفة بينهما؛

وقودا لنضج أفكار تسببت في تغيير فرنسا والقارة الأوربية والعالم.

والسؤال الذي يدور بخاطري هو: هؤلاء الناس أنتج الخلاف والمنافسة والغيرة بينهم خيرا وفيرا من الأفكار التي تسير عليها الحضارة الأوربية والعالم إلى اليوم، لماذا لم يثمر خلافنا وتوافقنا أي ثمرة حتى اليوم؟ نحن نختلف ونتفق فينتج في كلتا الحالتين ثمرات معطوبة من الكوارث، وهـــم يختلفوا ويتفقوا فينتجوا ثمرات ناجحة وناضجة، لماذا؟

سؤال يحتاج دراسات عميقة وصَبورة ومخلصة وخبيرة.

* * *

الإنسان

عندما يفجأ قطيع الغزلان بأحد النمور مسرعا إليهم من بعيد؛ يفــزع القطيع ويتفرق في كل اتجاه، ويُفــرِد النمرُ غزالا وحيدا بالمطــاردة ويتجاهل بقية القَطيع، يظل الغزال المســكين يجري بأقصى سرعة.

ويشــاء القدر أنْ تنجو الفريســة ويختفي النمــر عن نظرها، وفي لحظة ينخفــض الأدرينالين في دماغ الغــزال، ثم يتوقف ويمشي الهُوينا في المَرعى؛ يأكل ويشرب ثم يتمدد ناشرا جَسده متَعَرِّضا لحرارة الشمس؛ ويُغمض عينه مستمتعا بأمان اللحظة.

لقد قام بعمل مَســح تلقائي لتلك التجربــة التي خاضها منذ دقائق قليلة، كان الغزال على بعد أمتار قليلة من فم النمر؛ ومع ذلك لم يُصب بصدمة نفســية أو عصبيــة؛ ولم يُضطر للذهاب لطبيب نفسي ليعالجــه. بل نسي النمر تمامــا؛ وعاش حاضره ومستقبله بلا نمور ولا هُموم تِكرار التجربة.

وهذه هي الميزة البارزة للحيوان على الإنسان!

الحيــوان لا يُرهــق فكــره بالمــاضي ولا بالمســتقبل، الحيوان لا يشعر بالفَوْت. الحيوان لا يشعر بالتأنيب.

غالب الإنسان يشعر أنَّه ليس في زمانه ولا مكانه؛ وأنَّه لا يؤدي الواجب الذي عليه أنْ ينجزه أو يشغل نفسه به.

هذا شعور اللحظة للإنسان غالب حياته، نفس شعور الطالب حين تمر الشهور والشهور؛ ويوشك العام الدراسي على الانتهاء ولم يفتح أي كتاب دراسي.

شعور من يُجذب من ملابسه للخلف ويُعاق عن المتعة الصافية، يشعر بالضرب على ظهره طوال لَعِبه وسَمره وسَهره ومَرحه؛ يظل يتلقى سهام التوبيخ الذاتي المُعَكِّر للمِزاج والنازع لدَسم المتعة، حتى في لحظات التهيؤ للنوم يكون اللوم شديدا؛ وينفرد به التأنيب في تلك اللحظة التي يتحلل فيها جسمه مستسلما للنعاس، وتكتمل شبكة النكد لو جاءه في المنام هذا الكابوس اللعين، أنه في صالة الامتحانات ويمر الوقت ولا يَسطر أي إجابة، ومع هذه المعاناة المُركَّبة والمُعقدة؛ لا يستطيع أغلب الناس مواجهة هذا الشعور إلا؛ بالاستسلام لسياط التأنيب، والاستسلام لهدر العمر.

عندما أنظر إلى الإنسان وأقارنه بالمخلوقات الأخرى؛ أشفق عليه وأعجب بمعاناته النبيلة، ولهذا في يقيني أنَّ رحمة الله ستسع كل بني آدم حين الحساب وإقامة ميزان العدل يوم القيامة.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾

فما كُرِّمَ الإنسان إلا لمؤهلات خاصة أنعم الله عليه بها وحده، الذي حمله الإنسان في الدنيا ثقيل وخطير واستثنائي، فكل ما سأتحدث عنه لا يشعر به الحيوان ولا الطير.

أتحدث عن الإنسان .. بني آدم .. الإنسان مهما كانت عقيدته.. الإنسان الذي؛

- تجرحه الكلمة.. وقد لا يلتئم الجرح لسنوات طويلة.
- تؤلمه النظرة.. وهي نظرات بكافة الألوان؛ اللوم .. الاستغاثة .. التوبيخ .. الاحتقار .. التهديد.
- يثقله الهم.. والهموم دوامات يتوالى مروره خلالها حتى نهاية العمر.
- يأكله الحزن.. فيستحيل أن يعزل مشاعره وأحاسيسه عن الخارج.
- يطارده هَمُّ الموت.. وهو بن الخلود، وغرِزَ في فطرته الرغبة في البقاء وهي فكرة بنت الروح التي نفخها الله فيه.

- يخــترق كل فكره ما بعد الموت.. حيث يصارع أمله يأسَــه، ويعــاني حياته كلها توبيخا ذاتيا؛ ويشــعر دوما أنَّه ينتهي به نفق الحياة إلى مجهول مَهول، ولا يكفي هذا الإنســان معاناة في الدنيا، فالإنســان؛ له ذاكرة وإحساس بالماضي والحاضر والمســتقبل، لديه وعي يســعى طول حياته لاســتحضاره واستكماله، انسان جدير بأن يعذره الله ويرحمه الله ويُعِينه الله.

ولهذا ملايين الحوادث الموثقة لمن تعرض لتجربة توقف القلب والاقبال على الموت ثم العــودة للحياة، وهم من كافة الأديان والطوائف والجنســيات، كلهــم يتحدث عن مشــاعر راحة وســلام وعدم رغبة في العودة، مما يشير إلى أنَّ الأغلب سينجو ويغفر لــه، ولا يخــسر إلا الأقل وهم المفســدون في الأرض والطغاة والأشرار.

❊ ❊ ❊

ملائكة أم يعشقون البيض؟

في إنجلـــترا، وفي أثناء جولة لرئيس الـــوزراء البريطاني في حملة إنتخابية، رَشَـــقته إحدى الســـيدات بالبيض، فمَسح السائل اللَّزِج عنْ وجهه ولم يُبد أي انفعال واســـتمر في سيره ونشاطه، وبعد فترة عاد لنفس المكان، فوجد السيدة التي قَذَفته بالبيض؛ فترك الجميع وتوجه إليها، ثم تحاور معها.

هذا مشـــهد متكرر في الدول المتقدمة، وكثيرا ما نستشـــهد به كوسيلة لجلد أنفســـنا، ولكننا لم نهتم بأن نسأل أنفسنا السؤال البديهي؛ ما السر وراء هذا السلوك؟

ما هذه الجُرأة من الناس على الساسة؟ وما هذا الخضوع واللين والرِفق من الساســـة؟ هل هم ملائكة يمشـــون على الأرض؟ أم كائنات غريبة تَعْشق البيض سائلا على وجوههم؟

الســـاذج المتسرّع، هو من يجد تلك اللوحـــة دليل على ملائكية الزعماء السياســـيين؛ وأنَّ ضميرهم الحيّ وسَماحة أخلاقهم هما الذان وراء تلك التصرفات، لكن السلطة المُطلقة يَنْدر في التاريخ البشرى أن يُسَجِّل لها مثل هذا التواضع واللين، فما الذي أوصل بنا اليوم أنْ نعتبر تلك التصرفات طبيعية في شعوبهم؟

لم يتحولوا إلى ملائكة نُزعت منهم جُــذور الغرور والطغيان، ولكنها «الحداثة والمَدنية»، «القفزة» التي سبقنا بها الغرب سابقا والعالم حاليا، هؤلاء الزعماء لو تُرِكوا لطَبْعهم لخرج منهم أبْشع السلوكيات والشــهوات، هم فقط مُنْضبطون ومتأدبون بأدب القرود، إنضباط مَن يلوح فوق رأسه العصا أو السيف، هؤلاء يعلمون أنهم أمام مجتمع مدني ناضج، لا يســمح لأحدهم أنْ يصل لهذا المنصب إلا معتقدا وفاهما أنَّه في خدمة المواطن الذي يدفع الضرائب والذي بصوته يســتطيع أنْ يَعزله ويُســقطه، فهو خــادم الشــعب وأجير عنــده، ولهذا فللفــرد الاحترام بلا قيود، وللشعب حرية كبيرة في مخاطبتهم، بينما ليس له تلك الحرية طالما كان متعرّضا لمنصب سياسي.

لو آلَتْه قذفة البيض وأشْــعرته بالإهانــة، ثم أخرج الوحش من داخله؛ لضاع مستقبله السياسي تماما، هذا مجتمع ناضج ويعرف أنَّ الإنســان هو الأول في هذا المجتمع، فما هو سر اختيار الغرب لهذا النمط من الحيــاة؟ السر هو النتيجة التي نراهم عليها اليوم، فلو لم يكن للمواطن هذه الحرية والكرامة لكانوا بجوارنا محتارين بين الأصالة والمعاصرة ويتجادلون في كيفية اختراع العجلة.

* * *

شَبَع سقراط

نحن نتذكر كثيرا الأمــوات، هل نتذكر أيضا الأحياء؟، عادتنا البشرية تتوق لاســترجاع ما فات ومَن رَحَــل، نتعامل وكأن الفرصة التي فاتت هي تجربة ساذجة وتحتاج إعادة، نقول بألم: آه لو عاد بي الزمان وقت الســذاجة لفعلت كــذا وكذا، آه لو عاد بي الزمان وأدركت أبي لأشْــبَعته بِرًّا ولرَجَوته أن يَغْفر لي، آه لو عاد بي الزمان لِما ضِقْت بصديقي ولتحَمَّلته واستوعَبْته.

مازلنا ننظر لما يتســاقط من كِيس حياتنا بِحَسْرة وشَــجَن، بينما الــذي بداخل الكِيس لا ينال ســوى الإهمــال، ولا يتوقع له الاهتمام إلا بعد السقوط، هذا هو دَيْدَن بني آدم، وهذا هو الفخ الذي يقع فيه بني آدم.

مات فلان!، كان رجلا طيبا خلوقا متدينا، كان يعيش في حالِه، أنجز في حياته عددا من الأبناء والأحفاد، ثم رحل.

هذه ســيرة أغلب من ســبقنا ومن ســيلحقون بهم، والمتوقع أن تكون تلك سيرتنا حين نرحل.

نكتشف أن مائدة الحياة الواســعة والثرية لم نتناول منها سِوى نوع واحد مــن الطعام، وجبــة تكريس الحيــاة لانتاج أسرة

وأحفاد، ونغادر والمائدة كما هي لم تَمَسَّـــها أيدينا ولم تَنْظر إليها أعيُننا، ونغادر المائدة ولم نشـــعر بمن يجلســـون بجوارنا عليها سوى وهم يرحلون، ونترحم عليهم وكأنهم كانوا مُحور حياتنا، ولكنهم كانوا داخل الكيس ينتظرون السقوط، وكانوا بجوارنا على المائدة منشغلون مثلنا بنوع واحد من طعام الوليمة.

أتمنـــى أنْ يتَغلب أحدُنا على السِـــحر ويَـــضرب بيده بقوة على المائدة، ويُلقِّنَهم إرشادات وليمة الحياة ويقول:

تناولوا من كل أطايب المائدة ولا تَكْتفوا بنوع واحد، فالحيوانات هي التي تتناول فقط نوعا واحدا، والتفتوا يمينا ويسارا واشْعُروا ببعضكم ولا تُلهِكم المائدة عن بني آدم، كي تغادركم الوحشـــة والوحدة والغربة، ويزول الشعور بالفشل والفوت.

يعجبني مصطلح اخترعته من عندي وهو (شـــبع ســـقراط)، عندما يتناول المرء وجبة دســـمة تملأ معدته وتُرضي شهيته؛ لا بد أن يُغادر المائدة وهو قانع بـــما نال، وزاهد في المكوث عليها إلى مالا نهاية، وفُرصة الحياة هي مائدة الإنسان في الدنيا، ولكن أندر الناس من يغادرها وهو شبعان!

بل على العكس، أكثرنا يُغادر مُرْغما متحسرا مستوحشا، فلماذا لا نشبع من الدنيا؟

أغلبنا ولد في مكان ومُجتمع وبيئة وأفكار الحظيرة، يَندر من يخرج من الحظيرة ليطَّلع على الدنيا التي بها ملايين الحظائر والقصور، لو اطَّلع خارج حظيرته لفَهِمَ ثم عاش حياةً صحيحة ثم شَبع، من يمهر الحياة يتركها شَـبْعان؟، فقـط الصالحون عبر الزمان ومن كافة الأديـان، يخْرجون من الحياة في سـهولة وترحيب وبدون جَزَع، وهم نادرون.

عندما حُكِم على سـقراط بالموت بتناول السم وكانت الفرصة أمامه مضمونة للهرب بمسـاعدة أصدقائـه وبتغافل الحراس عنه، فالحكم عليه كان فقـط لإرضاء العامة والجمهور، بينما لم يكن هناك إصرار على إعدامـه، ولكنه في موقف تاريخي نادر، يرفض أن يُكتب في التاريخ أنه هَرب من الموت، ثم تناول السم بنفسه في رضا واستسلام .

هذا هو الشـبع، وهذا هو امتحاننا في الدنيا، أن نشـبع من الإيمان والعمل الصالح والفهم والحكمة والخير والجمال، ثم نغادر ونحن راضون عن أنفسنا حين نَتجهز لاستقلال قطار الرحلة التالية.

يقـول عبد الوهـاب مطاوع: حـين تَحين النهاية فإنَّه يَحسـن الا نُطيل فيها؛ إذ لا معني للإطالة إلا مضاعفة العناء ومكابدة الحسرة، لأن القطار قـد غادر محطته بالفعـل وانطلق باقصي

سرعة، ولن يلتفت للمهَرْولين خلفه، وفي الحب والحياة ينبغي أن يتعلم الانسان أنْ يقول وداعا في الوقت المناسب، وأنْ يتذكر دائما أنَّ لكل شيء نهاية، فلا يحاول عرقلة ستار الختام عن أن ينزل في موعده، ولا يُعَرِّض نفسه للهوان بالتشبث بالأستار محاولا تأخير إسدالها.

❊ ❊ ❊

خروتشوف في مصر

في برنامج شـــاهد على العصر، يَروي «مراد غالب» ســـفير مصر الأسبق لدى الإتحاد الســـوفيتي، عن زيارة «خروتشوف» لمصر في عام 1964، وكان مصاحبا للرئيس السوفييتي في مصر، قال:

نصح خروتشـــوف ناصر بعدة نصائح ولَيْته انْتبه لها، للأسف فعل عكس كل تلـــك النصائح، وعَلَّقَ (مـــراد غالب) قائلا: (إنَّ هؤلاء الزعماء لا يأتـــون صدفة، بل عنْ مؤهلات وتاريخ نضال، ولهذا يهتموا بالجَوْهر ولا يَغرَّهم المَظْهر، وهذه الزعامة نِتاج خبرة وتجارب كبيرة).

نصحه خروتشـــوف بأن يهتم بزراعة القطن، وقال له: (إنَّ في القطن ميزة اســـتخدام كل ما فيه، «الثمرة والبذور والعيدان» فلا يوجد فيه أي فقد).

وعندما زار أبي زعبل ورأي المصانع والعمال وشاهد عدد العمال الكَثيف، قال: (هذه المصانع بحجمها وإنتاجها لا تتناســـب مع هـــذا العدد الكبير للعمال، ليرجع أغلب هـــؤلاء العمال لبيوتهم وأعطوهـــم مُرتباتهم بلا عمل، هذا خير من أن يَظَلّوا في المَصانع لأنهم ســـوف يُخْرِبون المصانع والصناعـــة ويُعطلون الإنتاج)، فما كان من ناصر إلا أن قال لمراد غالب: «صاحبك لا يُدرك كيف تُدار بلادنا ولا طبيعة شُعوبنا، خذه واصحبه لَمحل إقامته».

ثم قال مراد غالب تبريرا لما نَقَده خروتشوف: (نحن لا نملك موارد في بلادنا تُمَكِّنَّا من استغلال الكثافة السكانية فيها)، فقال له خروتشوف: (وهل تملك اليابان سوى البراكين والزلازل!، اليابان لا تملك سوى الإنسان واستثمرته جيدا، عليكم أن تستثمروا الإنسان).

وكانت هذه الردود مُفْحمة ومدهشة من خروتشوف، لأنه كزعيم شيوعي من المتوقع أن يَغرَّه عدد العمال، فقد كان معلوما أنَّ الروس عندما يقيموا علاقات مع دول حليفة، يكون أول تطبيق هو تمويل بناء مصانع تحوي كتلة كبيرة من العمال، لأنَّ العمال هم بِنية الماركسية، ولكنه أيضا يدرك أن هناك فرق بين المظهر والجوهر، فالصناعة أولا ثم العمال، بينما في مصر كان القرار العمال أولا ثم نبني لهم مصانع كغُرَف تَحْويهم.

الأصل عندهم الصناعة والمصانع والإنتاج والثمرة، وعندنا المظهر دون الجوهر في أغلب ما نقلنا لبلادنا، نقلنا مظهر الديمقراطية من انتخابات وتصويت ولكن بلا شفافية، نقلنا مظهر الحضارة من بريق وبِناء وأضواء بلا صناعة وعِلم وإبداع.

لقد ارتدينا البدلة فوق الجَلابية؛ فكان الارتباك في الحركة، والضِيق في اللباس، والفوضى في المظهر، وتوالِي العثرات.

❊ ❊ ❊

تنفس أنت أولا

عندما تأملت في تاريخ قضية فلسطين والقدس؛ أدهشني فكرة بديهية لم يَسبق أنْ خطرت ببالي، منذ عام 1948 وعلى مدى خمس وسبعين عام وتحت راية فلسطين والتفرغ لقضيتها، تم نزف دماء كثيفة وأكثرها خارج فلسطين وفي صراعات بعيدة عن قضية القدس وفلسطين، وتم فرض طوارئ على بلاد العرب لعشرات السنين، تحت شعار؛ لا صوت يعلو فوق صوت المعركة.

وأعلن «عبد الناصر» أنْ لا رفاهية للديمقراطية اليوم حتى ننتهي من قضية فلسطين والتنمية، وهُزِم حزب «محمد نجيب» المنادي بالديمقراطية، واستعد المصريون لتحرير فلسطين وصعود سلم التنمية، ثم احتلت إسرائيل بلاد العرب ومعهم القدس.

فأصبح شعار القدس في القلب هو المتصدر، وظللنا عشرات السنين نتابع أخبار فلسطين والقدس في مقدمة نشرات الأخبار، ونترصد من يزور إسرائيل من الشخصيات العامة لضمّه لقائمة الخائنين، ولنعلن شجْبنا ونثبت لأنفسنا أننا مازلنا على الطريق، ومازال حلم القدس قائما ومتصدرا.

أتذكر مذبحة «جنين» عـــام 2002 م، يذكر أحمد خالد توفيق: هناك موقع أمريكي متخصص في الصور المرعبة اسمه «روتن دوت كوم» فيه فصـــل كامل عن مذبحة جنين، ترى فيه صورا لا يُصدِّقها عقل ولا يَتحمَّلها جهاز عصبي بَشري، نُشَرَت مع تعليق ساخر من صاحب الموقع الأمريكي يقول: «ومستر أنان يُصر على أنَّه لم تَحدث مذبحة في جنين».

وأتذكر من ضمن روايات الشهود المحايدين على هذه المعركة؛ «خوسيه ســـاراماغو» بعد زيارته للمخيم ابّان المعركة: (أعتقد أنَّ كل مـــا أملكه من معلومات عن الأوضاع في فلســـطين قد تَحطم، فالمعلومات والصور شيء، والواقع شيء آخر، يجب أن تضع قدمك على الأرض لتعرف حقاً ما الذي جرى هنا، يجب قَرع أجـــراس العالم بأسره لكي يعلم.. أنَّ ما يحدث هنا جريمة يجب أن تتوقـــف.. لا توجد أفران غاز هنا، ولكن القتل لا يتم فقط من خلال أفران الغاز، هناك أشـــياء تم فعلها من الجانب الإسرائيلي تَحمل نفس أعمال النازي، إنها أمور لا تغتفر يتعرض لها الشعب الفلسطيني»

في تلك الأيام صدر تصريح من الأمـــم المتحدة؛ أنَّه في حالة تقـــدم يـــاسر عرفات بطلب تحقيق فســـوف يُســـتجاب له،

وفَرِحْت شـــخصيا، لأنَّ هذا معناه أنَّ تلـــك الجريمة النادرة سوف تَنال عدالة.

ثم تم الضغط على (عرفات) ليُعلن أنَّه لن يتقدم بطلب تحقيق، الزعيم المتصدر لقضية فلســـطين والقدس وهو «وليّ الدم» كما يقولون في الفقه، تنازل، ثم تنازل الجميع بتنازله، لأن الزعيم تم الضغط عليه! ومصيبتنا في هؤلاء الزعماء القابلين للانضغاط.

ثم عندما قال عرفات الـ»لا «الوحيدة التي قالها في حياته، قتلوه .. ليأتي بعده من يُكمل المسيرة.

وبهذا تبين لنا أن ليس المشـــكلة في التضحيـــة بالدماء الغزيرة من أجل القـــدس، ولكن في الحرية التـــي تحافظ وتحفظ تلك التضحيات من أنْ تُهدر.

في الطائرة وفي حالات الطوارئ تهبط أمام كل راكب أداة تنفس تُوضع على الفم والأنف، ومن إرشـــادات الأمن والسلامة أَنَّ على كل راكب أن يَبْدأ بنفســـه، فيلتقط جهازه أولا ويضعه على وجهه ثم بعد ذلك يُســـاعد الآخرين، وهذه النصيحة بالذات موجهة لمن بجانبه طفل، فربما تتغلب شـــفقة الأب على الطفل فيبدأ في وضع القناع عليه، وربما يحدث ارتباك يتسبب في حالة إغماء للأب، فلا يسعف ولده ولا نفسه.

ولهذا كانت النصيحة أنْ تبدأ بنفسك كي تستطيع مساعدة غيرك، فكما أن تركيزك على الطفل ونِسيانك نفسك قد يؤدي لهلاك الطفل وهلاكك، فنحن حين تَلَهَّينا بقضية القدس ووضعناها هدفا أسمى مُقدَّسا ومُقدما، ونسينا أننا لا بد أن نضع على أنوفنا جهاز الحرية الخاص بنا أولا، نسينا طوال هذه العقود الطويلة أنَّ فاقِدَ الشَّيء لا يُعطيه.

نحن لم نتنفس حرية ولا كرامة عبر حياتنا وتاريخنا سياسيا ومجتمعيا، في الطفولة، في العائلة، في الشارع، في المؤسسات، في المدارس، لقد كان من الغباء أن نَشْغَل أنفسنا بِفَك قيود الآخَر ونحن مقيدين، هذه ليست دعوة لتهوين مكانة القدس، هذا لا يخطر بالبال، ولكن إنْ كنت مقيَّدا وترى بعينك الآخَر يُدَنِّس المُقَدَّس، فلا فائدة من تعاطفك وغِيرتك طالما أنت مُقَيَّد.

وكأننا في سجننا نزعق ونصرخ من وراء القضبان نَتوعد المغتصب أن يرفع يده، وهو يضحك منا ويسخر من بلاهتنا وغَفلتنا وعجزنا عن تحرير أنفسنا أولا؛ نحن سجناء الأفكار القاتلة والعادات الفاشلة والنفسِيَّات المُعَقَّدة والآبائية والسلطوية القاهرة، لنتحرر من سجوننا أولا ثم نحرر قُدْسنا.

❊ ❊ ❊

سراج الدين ونظرة نابليونية

عندمـــا عُوتب نابليون في عدد القَتْلى الكبـــير من جنوده؛ قال: «إنَّ دخلي السنوي مائة ألف جندي، فلا ضرر من إنفاق عشرين ألف»!

نحتفل يـــوم 25 يناير بعيد الشرطة، فما قِصة هؤلاء الشـــهداء النُبَلاء؟

في 25 يناير 1952 اســـتدعى القائد البريطـــاني بمنطقة القناة «البريجادير أكسهام»- ضابط الإتصال المصري، وسلمه إنذارًا بأن تُسَـــلم قوات البوليـــس «الشرطة» المصرية بالإســـماعيلية أسلحتها للقوات البريطانية، وتَجلو عن دار المحافظة والثكنات، وتَرحل عن منطقة القناة كلها، وتنســـحب إلى القاهرة بدعوى أنها مركز إختفاء الفدائيين المصريـــين المجاهدين ضد قواته في منطقة القنال.

رفضت المحافظة الإنذار البريطاني وأبلغته إلى وزير الداخلية « فؤاد سراج الدين باشا « الذي أقرَّ موقفها، وطلب منها الصمود والمقاومة وعدم الاستسلام.

وقبل غروب شـــمس ذلك اليوم حاصر مبنى قســـم البوليس «الشرطة» الصغير ومبنى المحافظة في الإســـماعيلية ، «ســـبعة

آلاف جنـــدي بريطاني مزودين بالأســـلحة، تدعمهم دباباتُهم السنتوريون الثقيلة وعرباتهم المصفحة ومدافع الميدان» ، «بينما كان عدد الجنـــود المصريين المحاصرين لا يزيـــد على ثمانين في المحافظة، لا يحملون غير البنادق.»

واســـتخدم البريطانيون كل ما معهم من الأســـلحة في قصف مبنى المحافظـــة، ومع ذلك قاوم الجنود المصريون واســـتمروا في الدفاع ببسالة وشجاعة فائقة، ولم تتوقف هذه المجزرة حتى نفدت آخر طلقة معهم بعد ساعتين طويلتين من القتال، سقط منهم خلالها (خمســـون) شـــهيدًا و (ثمانون) جريحا وهم جميع أفـــراد جنود وضباط قوة الشرطة التـــى كانت تتمركز في مبنى القســـم ، وأصيب نحو سبعون آخرون، هذا بخلاف عدد آخر من المدنيين وأسِرَ من بقي منهم.

الســـؤال الذي يدور بخاطـــري الآن، ويجعلني لا أســـير مع التفكير الجماهيري، كيف كان شعور سراج الدين «الذي عاش بعدها حتى عَمَّر التاسعة والثمانون» حينما قرر أن يخوض رجاله معركة معروف أنَّ كل من فيها سيُقْتل؟

إنَّ من يأمر بالصمود يجب أن يكون متيَقنا من قدرته على إرسال قوات دعم، أو سيقوم بأي تَحرك فيه مكسب عقب تلك المذبحة

التي ســتحدث، أو على الأقل يقوم بعمل اتصالات للتفاوض مــع الإنجليز، لأن الفــرْق في العَدد والعُدَّة هائــل، «دبابات مقابــل بنادق قديمة»!، ثم إنَّ النهاية المحتومة والوحيدة كانت الاستسلام مع نفاذ الزخيرة وهذه بطولة نادرة لا خلاف عليها، لكن ما الهدف الذي تحقق؟

أنْ نُســجل بطولة تُكتب في التاريخ لسياسي غامر بأبناء غيره! هلَّا انتظر حتى يذهب إليهم بنفســه ليستشــهد معهم ويكون قُدوة؟ من يشــعر بالمســؤولية ويعلم أنَّه لن يستطيع نجدتهم؛ عليــه أن يأمرهم بالاستســلام وحفظ النفس طالمــا النتيجة النهائية معروفة.

مضى العهد الذي يكون القائد على ظهر فرس في المقدمة يَتَحمل مع جنوده نتيجة قراراته، الفداء والتضحية والشــهادة لا بد أن يكونوا بِهَدَفِيَّة، ولا يكون وراءهم قرار غير مسؤول، رحم الله كل شهداء الوطن وما أكثرهم.

* * *

لا أريد دُعاءكم

بعد أيام تدق ســـاعة الواحدة والستون من عمري، كلما مرَّت الأيام كلما تناقص عدد من أعرفه ولم يرحل، حتى أنني أتعجب من أثر الدنيا فينا.

في شـــبابنا كان ما أكثر الرفاق، وما أكثر تهورنا في مخاصمة هذا واحتقار هذا، ورفض هذا والتمرد على هذا والزهد في هذا.

مثل من رصيده يزيده غرورا، فينفق بلا حساب؛ وهو مطمئن إلى أنه أكثر من رصيد العمر؛ فلينفق ولينفق ولينفق؛ وليخاصم ويفارق ويهجر بلا حساب. واليوم... ارحموا عزيز قوم ذل.

مـــا هذا الكم الهائل من المحبة ورحابة الصدر تجاه من تبقى من معارفي! أتذكر الآيـــة الكريمة «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (الحجر – 47)

ولي الحق في هذه المشـــاعر المدهشة، فقد أصبحنا نادرين.. نعم نادرين، ننتمي لنفس المساحة الزمانية والمكانية التي نشأنا فيها، مثل من يســـكن في مبنى من ملايين الطوابق، وفي طابقه جيران معدودون، جيراننا هم المعاصرون لطفوتنا وشبابنا.

والأغلب يرحل بلا استئذان، والذي يرحل لا يعود، والدرس ليس في كل ما ذكـــرت، فما ذكرت عبارة عـــن خَطرات نفس وترددات حُـــزن ووراءها هموم الرحيل. هـــل أرحل وأنتظر دعوات من خلفي؟ إذا أنا من الخاسرين.

لا نفعنـــي دعاؤهم مـــا لم ينفعني دعائي لنفـــسي ما دمت حيا، لا أريـــد أن أرحـــل وأنـــا أحمـــل نفســـية التلميـــذ البليـــد، الذي لم يسطر إلا إجابات طائشة وضالة وأقلها الصحيح، يظل منتظرا درجات الرأفة أو معجزة اللا مُتوقع، فهو أدرى بورقته وإجابته، كل يوم هو فرصة لســـطور مـــن إجابات صحيحة، وهذا أكرم من أن أرحل وكل أملي في دعوات الآخرين.

❊ ❊ ❊

قصاصات

غصة العميل

لا أنْسى ذلك المشهد البليغ؛ في بدايات استعمار أمريكا والصراع الأوربي عليها؛ حدثت حرب بين فِرقة فِرنسية مدعومة من قبيلة من الهنود الحمر؛ وبين فرقة إنجليزية مُتَحصنة في قلعة في أمريكا الشـــمالية؛ هُزِمَ الإنجليز واستسلموا للفرنسيين بفضل شجاعة الهنود الحمر الذين هم خُبراء بالمكان وأعلم بتضاريس أرضهم.

ثـــم جاء المشـــهد المؤلم لكل صغـــير يكون عميـــلا لقطب من الأقطاب، فرغـــم أنَّ الهنود هم مـــن رجَّحـــوا الكَفَّة لصالح الفرنسيين، إلا أنَّ القائد الفرنسي جلس على مائدة؛ يتسامر مع عدوه؛ «القائد الانجليزي».

جلسوا في الهواء الطلق، تدور الكؤوس والطَعام الشهي بينهم، يتبادلوا الآراء في القضايا السياسية والحربية والفنون الأوربية، بينما ينظر إليهم زعيم الهنود منْ طَرْف عينيه حســـدا وألما، فلم يُسمَح له بأن ينال شرف الجلوس معهما ويتساوى بهما!

فما هو إلا أداة تُســـتعمل مرة واحدة ثم تُرْمى، ونحن نعرف ما انتهي إليه الهنـــود الحمر من إبادة فيما بعـــد، وما مصيرنا منهم ببعيد.

هذا جزاء من يستورد ولا يبتكر

في كتـــاب القلب لا يمتلئ بالذهب لأنيـــس منصور ذكر تلك القصة:

أعلنت تاتشر رئيســـة وزراء بريطانيا الحـــربَ على الأرجنتين، تريد غزو جزر فوكلاند لاستردادها ثانية منهم.

كان الاسطول الأرجنتيني يســـتخدم صواريخ مُرَوّعة فرنسية الصنع، أسمها إكزوسيست (أي السمك النطاط).

غرقت ثـــلاث بواخـــر بريطانية، ذهبت مرجريـــت تاتشر إلى الرئيس ميتران، قالت له في حزم» : سوف أستخدم الصواريخ النووية إذا لم تعطني الشفرة الخاصة بالصواريخ»

الشـــفرة تجعل الصواريـــخ تَحيد بعد إطلاقهـــا، خضع ميتران لتهديد تاتشر، أعطاها الشفرة، انتصرت بريطانيا بخيانة فرنسا للأرجنتين.

كانت تعد خيانة

أذكر منذ ســـنوات طويلة؛ وأنا صبي؛ أنني شـــاهدت عرضا وثائقيا عن خروج الاحتلال الألماني من فرنسا؛ في نهاية الحرب

العالميــة الثانية، عَرَضَ مشــهدا لبعض الفتيات الفرنســيات؛ يقفن على رصيف محطة القطــار، وبعض الألمان داخل القطار يُطلون من الشــباك، والفتيات الفرنسيات يبكون بشدة لفراق أحبائهنّ الألمان.

كنت وأنا بريء أمتلئ دهشة من هذا المشهد، ففي صباي كنت أرى هذه خيانة مُســتحيلة الحدوث، لكني لم أعد أدهش؛ فقد شــاعت الظاهرة، وشيوع الظاهرة ينفي الحاجة لتفسيرها؛ بعد أن أصبحت واقعا؛ وغادرتني الدهشة .

خصلة الشعر

سألني فتى من السودان عن التطبيع! وماذا يعني؟ لأنه أُصيب بالاضطراب والتشوش لعدم فهمه لما يثار حول هذه القضية.

هل هو خيانة؟ أم اضطرار؟ أم إعلان عن الواقع القديم؟

قلت له:

- يا بني في الماضي حينما كانت تَبرز عفويا خصلة من شــعر أختك أو زوجتك وهي تتحدث، ماذا كنت تفعل؟

- كنت سريعا أنبهها لكي تردها تحت الغطاء.

- حسنا لنتخيل شـــخصا تطور به الحال حتى أصبحت أخته تمشي سافرة بملابس لا تَستر شيئا، وتنتقل من أحضان هذا إلى هذا! واستمر هذا الوضع طويلا حتى صار هو الأصل والمعتاد! هل يُلتفت لخصلة الشعر؟

سكت صديقي ولم يجد مزاجا ولا قدرة على الرد.

- وحين تصبـــح بنات كثيرة في البلدة مثل تلك الأخت! هل يخطر ببال الناس الخصلة؟

قال لي في توسل: أرجوك ارحمني فهمت.

- يا بني؛ نحن نحتاج غاندي يُبعث من جديد.

رشوة بإسم الإحسان

يحكي إدوارد ســعيد: في القســم معي؛ زميلــة وطالبة هندية يسارية، تُســاند الفلســطينيين وتهاجم الاحتلال والعنصرية الإسرائيليــة، رأت دولة إسرائيل أنَّ عندهــا موهبة في الأدب والنقد، إنْ تَركوها فسوف يَبرز نجمها مستقبلا وتصبح سلاحا مُسَلطا على إسرائيل وتشن قلمها لمهاجمة إسرائيل ولا يستطيعوا شراء انحيازها.

أطلقت إسرائيل عليها الجامعـــات والجمعيات الأدبية العالمية التي لها علاقة بإسرائيل، ثم أطلقت عليها الجماعات والجمعيات الأدبية الإسرائيلية، تَدعوها لإلقاء محاضرات وتعطيها جوائز، أغرقوها بالمِنح المالية والتقديـــر المعنوي، صارت نجمة بأيدي إسرائيلية.

قابلت بعد ذلك أدوارد سعيد. قالت له:

ما زلـــت أرى أنَّ اسرائيل دولة اســـتعمارية، لكن ما حصل لي من إحســـان فوق الطاقة، فالذي أحسن إليَّ ليس الحكومة لكن المجتمع الجامعي والناس.... أنا مُقَيَّدة بإحسان لا فِكَاك منه.

القسوة النادرة

يُكثـــر اليهود مـــن أفلامهم عـــن المعاناة في الحـــرب العالمية، ولا أنسى مشهدا فيه طابور من اليهود وحولهم الحرس الألماني وفيهم ســـيدة ولها وطفلان، ثـــم يقول لها الجنـــدي: اختاري منْ أقتله من أولادك.

تذهل الســـيدة وتظل في مســـاومة معه وتتوسل إليه وهو يُصِر على أنْ تختار. فيقول؛ «سوف أعد تنازليا فإن لم تختاري فسأقتل

الاثنين معا، خمسة .. أربعة .. ثلاثة .. أثنين .. واحد ... ثم أطلقت صرخة وفيها اسم أحد الولدين فأطلق عليه النار وقتله.

هناك مشاهد مثل هذا المشهد لا تُعد ولا تُحصى أفرزتها الحروب وخاصة العالمية وتنافست في استعراض الوحشية البشرية حين تنطلق، لكن هذا الجندي فعل فعلا شيطانيا لا يمكن تخيل شره.

جعلها تختار. وحين تختار ... تَحمل في ضميرها نصيبا كبيرا من الشعور بالمشاركة في الجريمة، تظل تؤنب نفسها ما بقي من حياتها أنْ قتلت ولدها، وهي لم تقتله وقتلته في نفس الوقت.

هذه المشاهد تجعلك تُبرّر وتستوعب جُرأة الملائكة حين سألوا ربهم عن قرار خلق آدم؛

«قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ»- (البقرة- 30)

بني آدم الذي له تَفنن في قسوته بدرجة فوق التصور. تفنن في الخير وتفنن في الشر، وملعب الدنيا هو مسرح الفن والفنانين.

الطاحونتان

- سوف أزوجك بأغنى فتاة في قريتنا يا ابن العم.

– كيف ولا أملك شيئا؟

- سـأزوجك بنظرية الطاحونتين، سـوف أغريهم صادقة بأن لديك طاحونتان، بعـد الزواج لا بأس إنْ علموا أنهما طاحونتان للبُن.

– (ذكرتني هذه النكتة بالجزَّار الذي يبيع الجَزَر)

النظر من الزاوية الصحيحة

في كتـاب مواقف لأنيس منصور في حوار مع صديقي المصري قال له: الفرق بيننا نحن المصريين والأمريكان بسيط:

نحن نرى أنَّ الطريق إلى النجاح واحد.

هم يرون أن هناك ألف طريق.

نحن نرى أن الفشل نهائي.

هم يرون أن الفشل مرحلي.

نحن نرى أن النجاح نهائي فلا جدّ بعده.

هم يرون أن النجاح مراحل متتالية .

نحن نفكر كالأشجار نولد ونعيش ونموت في مكان واحد.

هم يفكرون كالطيــور يولدون في مكان ويعيشــون في مكان ويموتون في مكان ثالث وهم يحلمون بمكان رابع .

حب الإمتلاك

من كتاب «الروح والجسد» لمصطفي محمود:

- إنني أتمنى أن تحبني امرأة هذا الحب.

– عن نفسي؛ لا أتمنى أن تحبني امرأة هذا الحب.

- لم؟

– لأن المرأة التي تحب هذا الحب؛ لا تســامح، إنها ترى نفســها قد أعطت روحها؛ فلا أقل مــن أن تأخذ روحي، والذيــن يحبون هذا الحب هم بين؛ قاتــل ومقتول، وأنا لا أحب أن أكون أحدهما.

الحرية

أشـــهر فتاوى بن كمال باشـــا في الدولة العثمانية: عُرض عليه منازَعة على صبي، يتنازعه مســـيحي يقول هو ابني. ومســـلم يقول هو عَبدي.

فما كان منه إلا أن حكم به للمسيحي.

قال في فتواه: إن الحرية مقدمة على الدين، فالأولى له أن يكون حـــرا ولو في كنف غير مســـلم، ثم بعد ذلـــك يمتحن بحريته فيختار ما يشاء من دين.

هذه الفتوي أثارت جدلا كبيرا في عصرة؛ بين أصحاب المذهب الحنفي في الخلافة العثمانية بتركيا.

ابن كمال باشا عاش «873 هـ- 940 هـ/ 1468 - 16 أبريل 1536م»، هو شيخ الإسلام، عرف واشتهر بـ «مفتي الثقلين» .لوسع اطلاعه، وعمق إحاطته بالمسائل الشرعية، وقوة محاكمته في المناظرة. فقيه ومفسر وقاضي ومتكلم وأديب وشاعر.

الجورب الجاني

هذه القصة قرأتها لخليل نعيمة:

سـيدة أوربية متزوجة شديدة الجمال من طبقة متوسطة، سعت بجمالها ولباقتها أنْ تتصل بالطبقـة العليا من المجتمع، جاءتها فرصتها التي تحلم بها.

تم دعوتها وزوجها لحفلة تقـام كل عام للطبقة العليا، أخذت تجهز زينتهـا في غرفتها؛ وزوجها بالخارج يسـتعجلها، أخيرا تمكنت من ارتداء رداء يجعلها سندريلا الحفل.

ذهبت للحفل ورقصت مع زوجها، أخرجت كل ما بها من فتنة ورشاقة وبهاء، نجحت بامتياز في لفت انتباه الجميع، أذهلتهم وأسالت لعابهم وأثارت غيرة وحسد كل النساء في الحفل.

بعد الرقصة الاسـتعراضية جلسـت وهي ممتلئة زَهوا بجانب إحدى المدعوات، فهمسـت جارتها في أذنهـا كلمة، في الحال أغمى عليها، بعدما أفاقت أسرعت منصرفة ومعتذرة.

في البيت أخذت تؤنب وتسب وتهين زوجها، فهو الذي تسبَّب في تلـك المصيبة، توبخه أنَّـه كان يسـتعجلها وجعلها تُخطئ وترتدي زوج من الجوارب مختلف الألوان.

تخيلت نفسها وهي ترقص والجميع ينظر الى جوربها؛

وليس لرشاقتها وزينتها وهي ترقص، ويضحكون، يا للخجل والعار الذي لن يُنسى.

ألقــت بالجورب في وجــه زوجها وهي غاضبــة، نظر الزوج الي الجورب، حــاول أن يعــرف الاختلاف بينهــما، فلم يجد إختلافــا، لقد حســدتها جارتها وأفســدت عليهــا حفلتها، وهكذا كيد النساء؟